أَلقُرآنُ الكَريمُ بَيْنَ المعَاييرِ النَّصيَّةِ وَأُسُسِ الخِطابِ

(دراسة تأصيليَّة)

أ. م. أحمد عبدالله نوح أ. د. حامد ناصر الظالمي

جامعة البصرة – كلية التربية للعلوم الإنسانية– قسم اللغة العربية

فحوى البحث

يُعد تحديد المصطلحات أو المفاهيم عنصراً أساساً من العناصر التي تقوم عليها عملية الإبلاغ والتواصل؛ ذلك بأنّه يتعذر وجود تواصل ما في غياب معرفة المفاهيم المستعملة في ذلك التواصل، وهذه المفاهيم تختلف من حقل معرفي إلى آخر؛ فالفلسفة لها مفاهيمها، والطب له مفاهيمه، والأدب له مفاهيمه الخاصة التي تميزه وتديم حيويته، لذلك نجد أنّ كل حقل من الحقول التواصلية يبقى تحديد المفاهيم هو المحور الأساس الذي تدور عليه عملية التفاهم والاتصال، فالمفاهيم هي ما يجعل الإنسان يفرق بين شيء وشيء، وكائن وكائن، وكيان وكيان. وبالنظر لطول البحث وطول قائمة المصادر فقد اضطررنا لاختصارها بالأهم منها، فمعذرة.

الملخص:

لما كان الخطاب ممارسة اجتماعية، فلا تنفصل فيه اللغة عن الموقف، أو المنطوق عن الفعل، إذ هو عملية من عمليات الاتصال وإنتاج المعنى التي تكسبه الأبعاد المختلفة، التي تضمن له الانسجام وشروط التواصل، ومعروف أنّ وظيفة الاتصال هي أهم ظاهرة تكاملية تميز الأسلوب الأدبي عن غيره من الأساليب.

وهذا ما جعل مايكل شورت (mecheul. short) يذهب إلى القول: بأنّ (الخطاب اتصال لغوي، يعتبر صفقة بين المتكلم والمجتمع، نشاطاً متبادلاً بينهما، وتتوقف صيغته على غرضه الاجتماعي).

ولما كانت اللغة ظاهرة استدلالية وإيصالية واجتماعية في الوقت نفسه فإنّها تشكل في بعديها المنطوق والمكتوب أهم وسائل الاتصال الإنساني، ومن أجل ذلك حظيت بنصيب وافر من الدراسة منذ القديم، ومن أحدث الأطروحات التي عنيت بتوصيف وسائل الاتصال اللساني الأطروحة النصيّة في تحليلاتها النقدية المختلفة، وفي هذا السياق يرى روبيرت ديبوجراند أن اللسانيات مطالبة بضرورة متابعة الأنشطة الإنسانية في التخاطب، إذ إنّ جوهر اللغة الطبيعية هو النشاط الإنساني ليكون مفهوماً ومقبولاً من لدن الآخر في اتصال مزدوج.

لذلك نجد أنّ من أهم وظائف اللغة التي نادى بها جاكوبسون وأولاها اهتماماً بالغاً وظيفة التواصل لهذه الوظيفة طابعاً ثنائياً أيضاً يكمن في شكلين من التواصل: التواصل بالكلام، والتواصل بالكتابة. وعليه فإنّ أية دراسة لظاهرة معينة سواء أكانت إنسانية أم طبيعية لابدّ أن تبدأ نظرياً منطلقة من معيار الوصف والتسجيل لحركة الظاهرة المدروسة وعملها، وبهذا فقد تبدّى للدكتور مازن الوعر صحة المبدأ الذي قال به اللساني الفرنسي أندريه مارتيني، والقائل بأنّ أي علم من العلوم يجب أن يبدأ نظرياً وينتهي تطبيقياً.

لذلك نجد لزاماً علينا الوقوف عند الكلمات التي شكلت محوراً جاداً للجدل اللساني، ولاسيّما تلك المصطلحات التي احتلت موقعاً مركزياً في الأبحاث

والدراسات التي تندرج في مجال تحليل الخطاب، ومحاولة الكشف عن دلالة مكوناته وبنيانه النصية المدونة له بغية حفظه وتداوله، لذلك نجد ((مصطلحات: النص، السياق، الخطاب) قد احتلت موقعاً مركزياً في الأبحاث والدراسات التي تندرج في مجالات: (تحليل الخطاب) و (لسانيات الخطاب) و (لسانيات النص) و (نحو النص) وغيرها، حتى أننا لا نكاد نجد مؤلفاً ينتمي إلى هذه المجالات يخلو من هذه المفاهيم الرئيسة أو ما يرتبط بها ويتحدث عنها كالترابط والتعالق والانسجام وغير ذلك.

النص لغة:

وردت مادة (ن، ص، ص) في المعاجم اللغوية بمعانٍ متعددة، ترجع في عمومها إلى معنى الظهور، والرفع بنوعيه: الحسي والمجرد، وكذلك تدل على أقصى الشيء وغايته أو منتهاه، ومنه نصّ الناقة أي استخراج أقصى سيرها[1].

وعليه فقد حفلت معجماتها العربية بتأصيل مادة (ن، ص، ص) يجمعها جامع تنتظم فيه تلك الدلالات المتنوعة، ألا وهو الظهور والانكشاف، فقد ذكر ابن منظور في لسانه: (النص/ فعل الشيء/ نص الحديث ينصه نصاً: رفعه، وكل ما أظهر فقد نُص، ونصصت المتاع إذا جعلت بعضه على بعض ، وكل شيء أظهرته فقد نصصته، وأصل النص أقصى الشيء وغايته، ونص كل شيء منتهاه))[2].

وقريب منه ما أورده الفيروز آبادي في قاموسه المحيط في مادة (نصص) ((نصّ الحديث رفعه، وناقته استخرج أقصى ما عندها من السير، والمتاع جعل بعضه فوق بعض، والعروس أقعدها على المنصة -بالكسر -وهي ما ترفع عليه قانصته، والشيء أظهره...))[3]. وفي مختار الصحاح للرازي مادة (ن، ص، ص) في حديث علي عليه السلام: ((إذا بلغ النساء نص الحقاق، يعني منتهى بلوغ العقل،

(١) لسان العرب، مادة: نصص.

(٢) المصدر نفسه ٦/ ١٩٦.

(٣) القاموس المحيط ١/ ٨٥٨، مادة: نص، وفي الطبعة الاخرى تحقيق: مؤسسة الرسالة، مكتب تحقيق... بإشراف محمد نعيم العرقوسي ط ٢ ٢٠٠٥ م، الصفحة ٦٣٢.

ونصنص الشيء حركه))[٤].

وعليه يمكننا أن نميز أربعة من أهم معاني مادة (نصص) الشيء أوردتها المعاجم العربية تتمحور كالآتي:

١. الرفع: قال صاحب العين: ((نصصتُ الحديث إلى فلان نصاً، أي: رفعته[٥]، ومنه قول طرفه بن العبد:

ونصّ الحديث إلى أهله

فإنّ الوثيقة في نصّه))[٦].

٢. التحريك: قال ابن منظور في اللسان: ((النصنصة: تحريك البعير إذا نهض))[٧]. وقال الزبيدي: ((نصّ الشيء ينصه: حرّكه))[٨].

٣. نهاية الشيء وغايته: جاء في العين: ((نصّ كل شيء منتهاه))[٩]. وفي مختار الصحاح: ((إذا لغ النساء نصّ الحقاق فالعصبة أولى))[١٠].

وكذلك ورد في اللسان: ((النص أصله منتهى الأشياء، ومبلغ أقصاها، ومنه قيل: نصصتُ الرجلَ إذا استقصيت مسألته عن الشيء))[١١].

٤. الإظهار: قال الزبيدي: ((نص الشيء: أظهره، وكل ما ظهر فهو نص))[١٢].

هذه المعاني وغيرها مما دوّن في المعجمات العربية، قال فيها أحمد بن فارس: ((إنها ترجع إلى أصل صحيح على رفع وارتفاع وانتهاء في الشيء))[١٣].

ويبدو لنا من المعاني اللغوية المتقدمة أن الدلالة المركزية للكلمة هي (الظهور والانكشاف) التي انتقلت إلى المعنى الاصطلاحي فيما بعد.

ومما تجدر إليه الإشارة أن المعجمات العربية خلت من التدليل على المعاني الحديثة المستعارة عند النقاد العرب

(٤) مختار الصحاح/ ٣٨١ -٣٨٢، مادة: نص.
(٥) العين، الخليل بن أحمد، تحقيق د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي ٧/ ٨٦.
(٦) ديوان طرفة بن العبد، اعتنى به عبد الرحمن العطاوي/ ٥٩.
(٧) لسان العرب، ابن منظور/ ١١٠، مادة: نص.
(٨) تاج العروس ١٨/ ١٧٩، مادة: نص.
(٩) العين ٧/ ٨٦.
(١٠) مختار الصحاح، الجوهري/ ٣٨١ -٣٨٢، مادة: نص.
(١١) لسان العرب/ ١١١، مادة: نص.
(١٢) تاج العروس، الزبيدي ١٨/ ١٩٧، مادة: نصص.
(١٣) مقاييس اللغة، أحمد بن فارس ٥/ ٣٥٦.

كالمدونة مثلاً أو الكتاب أو الخطاب وغيرها، غير أنّ أصحاب المعجمات الحديثة قد تجاوزوا هذه المعاني وأثبتوا ما قرّ في ذهن مستعملي اللغة العربية من مفهوم النص[١٤]، فمؤلفو المعجم الوسيط عرّفوا النص بأنّه: ((صيغة الكلام الأصلية التي وردت من المؤلف))[١٥].

وقد تبدّى للدكتور محمود الجاسم معنى آخر يضاف إلى ما تقدم من المعاني، وهو ما أسماه بـ(الاستقامة والثبات) ((أما دلالة الاستقامة فشائعة، إذ قالوا في المجال الحسي: بات فلان منتصباً على بعيره، أي منتصباً، وانتصب الشيء وانتصب إذا استوى، ولا تخفى دلالة الثبات في معنى الوقت نفسه على هيئة معينة، وهي هيئة الثبات والاستقامة، ولعلّ منصة العروس تدل على شيء من ذلك أيضاً))[١٦].

(١٤) مفهوم النص بين القديم والحديث، د. محمود الجاسم، مجلة جذور، العدد ٣١/ ٤٥.

(١٥) المعجم الوسيط، د. إبراهيم أنيس وآخرون ٢/ ٩٢٦، ط ٤، السنة ٢٠٠٤، مكتبة الشروق الدولية.

(١٦) مفهوم النص بين القديم والحديث، مجلة جذور، العدد ٣١/ ٤٥.

فالوصف اللغوي إذاً للنص وصف معقد يتجاوز حدود ما هو قائم في اللغة، والواقع اللغوي، إلى ما هو غير قائم في اللغة، والواقع الخارجي أي أنّ المادة الفعلية التي تقدمها تراكيب اللغة ليست كافية لتقديم تفسيرات دقيقة للنصوص، وعلى اللغوي المفسر أن يستعين بعناصر أخرى[١٧].

النصّ اصطلاحاً:

إنّ أكثر المصطلحات إثارة في ميدان تحليل الخطاب (مصطلح النص) فقد تعددت تعريفاته وتشعبت، وفي هذا التعدد تعبير عن حيرة معرفية ومنهجية في اللسانيات الغربية[١٨]!. من هنا وعليه فقد غدا مصطلح (النص) يمثل إشكالية معقدة وكبيرة في النقد الحديث، وذلك بسبب تداخله مع عدد من المصطلحات الأخرى كالخطاب والأثر وغيرها[١٩].

(١٧) علم لغة المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري/ ١٠٦.

(١٨) المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، د. نعمان أبو قرة/ ١٧.

(١٩) الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، د. خلود العموش/ ١٧.

لذلك نجد مصطلح النص قد ((استعصى على التعريف قديماً وحديثاً، إذ كثيراً ما تكاثفت الأسئلة في ماهيته وأقسامه وأغراضه، وتمايزه عن أشكال تواصلية أخرى، ومن بين الأسئلة الملحة؛ أي نصٍّ تعني؟. أهو الديني أو الفلسفي أو العلمي أو الأدبي أو اللساني؟. أهو النص المكتوب، أو المنطوق، أهو التراثي، أم الحداثي، الشعري أم النثري[٢٠]؟.

ومع تطور الزمن أصبح للنص دلالة اصطلاحية مستمدة من الدلالات السابقة، فقد شاع اللفظ عند الأصوليين بمعنى الدليل المستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية، فقالوا: الكلام المنصوص، وهم يريدون الكلام الذي لا يحتمل التأويل، وقالوا أيضاً: لا اجتهاد مع النص، والجمع نصوص. ثم أريد به الكلام الذي يتضمنه القرآن الكريم والسنة النبوية، فقالوا: نصّ الكتاب، وهم يريدون ألفاظه التي تشكله))[٢١].

وهكذا بات مصطلح النص يطلق على الكلام الواضح الذي لا يحتمل إلا معنى واحداً أو لا يحتمل التأويل[٢٢]. لذا فإن أهم... لهذا العلم أنّه متداخل في صورة وثيقة مع علوم أخرى، كعلوم الشعر والبلاغة والأدب والأسلوب والاجتماع لم يكن مصطلح (نص) أسعد حالاً من مصطلح (جملة) فثمة اختلاف شديد بين الاتجاهات في تعريف النص إلى حد التناقض أحياناً والإبهام أحياناً أخرى، فلا يوجد تعريف معترف به من قبل عدد مقبول من الباحثين من اتجاهات علم لغة النص بشكل مطلق[٢٣].

ومن ثمّ كان من العسير تحديد مفهوم النص ذاته مثلما حدث بين الدارسين حول تحديد مفهوم واضح وشامل للجملة، وبالتالي تحديد الظواهر المجاوزة لها[٢٤].

(٢٠) نحو النص ومبادئه واتجاهاته الأساسية في ضوء النظرية اللسانية الحديثة، د. نعمان بو قرة، حج علامات، العدد ٦/ ٧.

(٢١) مفهوم النص بين القديم والحديث، د.محمود الجاسم، مجلة جذور، العدد ٣١/ ٤٧.

(٢٢) ينظر: التعريفات، الجرجاني (ن، ص، ص)، وللمزيد ينظر: التصور اللغوي.

(٢٣) علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات/ ١٠١.

(٢٤) المصطلحات الأساسية في لسانيات النص، د. نعمان بوقرة/ ٣٣.

من هنا قد يكون النص جملة أو عدة جمل، أوسلسلة متوالية من الجمل تقصر أو تطول بحسب تلبيتها للسياق، ومن هذا المنطلق يعرّف هاليداي ورقية حسن (النص) بأنّه وحدة لغوية في طور الاستعمال، فهو وحدة دلالية تحكمها وظيفة تواصلية وليس وحدة نحوية كالجملة مثلاً[٢٥].

وكما اختلف العلماء والباحثون في علم لغة النص في حده وتعريفه ومنطلقاته كذلك اختلفوا في طبيعته أمركبة أم بسيطة؟.

((فما يزال الخلاف شديداً بينهم -أي الباحثين -حول طبيعة النص الأساسية: هل يجب أن يكون النص بناء معقداً، أم أنّه يمكن أن يكون بسيطاً أيضاً؟. يذهب برينكر مثلاً في تحديده للنص إلى أنّه تتابع مترابط من الجمل، ويستنتج من ذلك أنّ الجملة بوصفها جزءاً صغيراً ترمز إلى النص، ويمكن تحديد هذا الجزء بوضع نقطة أو علامة استفهام أو علامة تعجب ثم يمكن بعد ذلك وصفها على أنّها وحدة مستقلة نسبياً))[٢٦].

وعلى هذا يكون النص ((سلسلة من العلاقات المنتظمة في نسق من العلاقات تنتج معنى كلياً يحمل رسالة))[٢٧].

وقد ذهب (تو دوروف) في تعريفه النص إلى أنّه يمكن أن يكون جملة كما يمكنه أن يكون كتاباً تاماً، وهو يعرف باستقلاله وانغلاقه))[٢٨].

أما (رولان بارت) فقد انطلق من العرف العام ليقف على التعريف الشائع، فيقول عن النص إنّه: ((نسيج الكلمات المنظومة في التأليف، والمنسق بحديث تفرض شكلاً ثابتاً ووحيداً ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً))[٢٩].

وخلصت الدكتورة خلود العموش الى نتيجة عممت القول فيها بإثبات خاصية الكتابة للنص بقولها: ((وإذا ما حاولنا استخلاص المقومات الجوهرية الأساسية لمصطلح النص لدى

(٢٥) الخطاب القرآني، د. العموش/ ١٩.
(٢٦) المصدر نفسه/ ١٠٣.
(٢٧) الخطاب القرآني، د. العموش/ ١٩.
(٢٨) ينظر: مقالات في الأسلوبية، د. منذر عياشي/ ١٢٨.
(٢٩) المصدر نفسه/ ١٣٠.

أولئك اللسانيين واللغويين عبر دراساتهم المختلفة؛ فإنّ المظهر الكتابي للنص يأتي أولاً، فالنص هو كل خطاب مثبت بواسطة الكتابة))[٣٠].

غير أنّنا لا نرى ما رأته الدكتورة العموش في استخلاصها المتقدم، إذ ليس كل ما كتب أو يكتب يمكن أن يكون نصاً إلا بتوافر ميزة التواصلية فيه. وهذا ما أثار حفيظة (برند شبلنر) ورفضه للتعريف القائل بأنّ النص ما هو إلا تتابع مترابط من الجمل، وقد عده غير منهجي علمياً، لغموض الرموز والعلاقات التي ينضمها اتساع الوصف، ومن ثمّ لا يمكن تطبيقه[٣١].

ومن هذا المنطلق رفض (جون ليونز) الإجابة عن ماهية النص التي تقول: إنّ النص عبارة عن سلسلة من الجمل ورفضها بقوله: هذه الإجابة ليست مقنعة تماماً، فهذه سمة النصوص الشكلية ذات الصبغة الكلية. وهذا ما جعل د. أحمد عفيف يقف بكثير من الحذر أمام ما ورد عن الدكتور سعد مصلوح في قوله: أما النص فليس إلا سلسلة من الجمل، كل منها يفيد السامع فائدة يحسن السكوت عليها، وهو مجرد حاصل جمع للجمل أو لنماذج الجمل الداخلة في تشكيله، وذلك بأنّ هذه الجمل فقدت خاصية الاتصال داخل هذا التعريف[٣٢].

وعليه فإنّ النص لا يكون نصاً إلا إذا كان نسيجاً تواصلياً ذا دلالة في سياق خاص، وهذا ما أشار إليه د. محمد حماسة عبد اللطيف بقوله: ((النص لا يمكن أن يصبح نصاً إلا إذا كان رسالة لغوية تشغل حيزاً فيها جديلة محكمة مضفورة من (المفردات) و (البنية النحوية)، وهذه الجديلة المضفورة كلها أمناء اللغة المعينة))[٣٣]. ولعل هذا ما جعل دي بوجراند يؤكد تلك الصفة المميزة للنص وهي وقوعه في الاتصال[٣٤].

(٣٠) الخطاب القرآني، د. العموش/ ١٨.
(٣١) نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، أحمد عفيفي/ ٢٣ - ٢٤.
(٣٢) المصدر نفسه/ ٢٤.
(٣٣) منهج في التحليل النصي للقصيدة، فصول، م ١٥، العدد ١٢/ ١٠٨.
(٣٤) النص والخطاب الأجراء، د. تمام حسان/ ٦٤.

وكذلك ممـــا نستدل به على صحة مدعانا في عدم التوقف مع الدكتـــورة العموش هو تعريف الأزهـر الـزنّـاد في كتابه نسيج النص والـذي أكد فيه على الربط والتواصل دون الاكتراث في كونه منطوقاً أو مكتوباً أو الإشـارة إلى ذلك، فنراه يقول: ((النص ينسج من الكلمات يترابط بعضهـــا ببعض، وهذه الخيوط تجمع عناصره المختلفة والمتباعدة في كل واحد هو ما نطلق عليه: نص))[٣٥].

وإلى مثل هذا أيضاً ذهب برينك في تعريفه النص بأنّه: ((تتابع متماسك من علامات لغوية أخـرى أشمل، فالنص بنية كبرى تحتوي على وحـدات صغرى متماسكة ليست جملاً، وإنما أجزاء متوالية تسودها سمة التماسك -بمفهوم ضمني- والـتـي تعدّ أسـاسـاً للمفهوم اللغوي اليومي للنص[٣٦]. وبهـذا لا يمكن أن يكون النص إلا وحدة دلالية تتمثل اللغة في التواصل، أما من حيث الجسم فقد يكون كلمة أو جملة أو عدة جمل أوقصة، كما ينبغي أن يمثل عملية تفاعل لغوية في واقع اجتماعي[٣٧].

لذلك نجـــد النص عند هاليداي ورقية حسن يشير في علم اللغويات إلى خفرة مكتوبة أو منطوقة، مهما كان حولها شريطـة أن تكون وحدة متكاملة[٣٨]. وكذلك وصف الدكتور نعمـــان بوقرة هـذا التعريف بـين الـنـص والخـطـاب، باختصاص النص بالمكتوب، والخطاب بالملفوظ بأنّه غير دقيق[٣٩].

ولعلّ الدكتور حسين حمزي قد أفصح عن رفضه أن تكون الكتابة ميزة خاصة بالنص ومخصصة لـه بقوله: ((ولكن الكتابة ليست هي النص تماماً؛ لن الكتابة بالمفهوم البياني هي الإنشاء والتي تقابل في النسق المفهومي النقدي: النثر كما تعني في

(٣٥) نسيج النص، الأزهر الزنّاد/ ١٢.
(٣٦) ينظر: التحليل اللغوي للنص، فلاري برينكر، ترجمة د. سعيد بحري/ ٢٣.
(٣٧) مفهوم النص بين القديم والحديث، مجلة جذور، العدد ٣١/ ٤٩.
(٣٨) نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، عفيفي/ ٢٢.
(٣٩) نحو النص، مبادئه واتجاهاته الأساسية، د. نعمان بوقرة/ ١٧، حج علامات، م ١٦، العدد ٦١.

المفهوم الحديث تثبيت الأصوات اللغوية بواسطة علامات خطية))[٤٠].

ثم يقيم دليلاً على صحة مدعاه بقوله: ((والدليل الذي نقدمه على أنّ النص لا يعني مطلقاً الكتابة نأخذه من الكاتب نفسه[*]، حيث يقول: ((يقرر رولان بارت أنّ (النص) في المفهوم الحديث ليس بالضرورة هو النص الأدبي بالمفهوم المتداول، بل إنّ الإيقاع الموسيقي نصٌ، واللوحة الزيتية نص، والشريط السينمائي نص، والمشهد التمثيلي نص وهلمّ جرا))[٤١].

وهذا يعني عند الحمزي أنّ مفهوم النص لا يقتصر على الكتابة أو الأدب، بل يتجاوزها إلى الأنساق التواصلية الأخرى. وقد أرجع الدكتور حمزي سببي جعل مفهوم (النص)[٤٢] مفهوماً إشكالياً غير قارّ إلى:

١. عدم استقراره كمفهوم نقدي.

٢. محاولة كل حقل من حقول المعرفة استغلاله لأهداف إجرائية منهجية[٤٣].

وقد بدا للدكتور محمود الجاسم أنّ إطلاق كلمة (نص) على النسيج اللغوي المركب الذي يؤدي وظيفة تواصلية سواء أكان واضحاً محدد الدلالة أم مشكلاً يحتمل التأويل، إنما هو ضرب من التوسع في الدلالة الاصطلاحية، ويعود ذلك إلى التأثر بالثقافة الغربية المعاصرة التي يطلق نص (Text) على النسيج اللغوي المركب حين يؤدي دلالةً ما[٤٤]، إذ تذكر الأصول اللغوية الغربية الإنكليزية منها أو الفرنسية أنّ أصل كلمة (Text) في الإنكليزية، أو (Texte) في الفرنسية يعود إلى الأصل اللاتيني (Tex tus) بمعنى النسيج أو الضفيرة من الشعر، ويذهب رولان بارت إلى أنّ النص

(٤٠) نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، د. حسين حمزي/ ٤٥ -٤٦.

(*) يقصد الدكتور عبدالملك مرتاض في كتابة نظرية النص الأدبي.

(٤١) نظرية النص الأدبي، د. عبدالملك وتاض/ ٤٧، عن نظرية النص د. حمزي.

(٤٢) نظرية النص، د. حسين حمزي/ ٤٦.

(٤٣) ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤٤) مفهوم النص في العربية بين القديم والحديث، مجلة جذور، العدد ٣١/ ٤٩.

مأخوذ من حيث الجذر من مادة (Text) التي تعني النسيج[٤٥] من هذا المفهوم انطلقت الرؤية الغربية لتحديد مفهوم النص وتعريفه، فغدت تعريفاتهم مختلفة كثيراً فيما بينها، وربما وصل إلى حد التناقض -كما أشار إلى ذلك الدكتور سعيد حسن بحيري[٤٦].

فهناك توجه يطلق مصطلح النص على المنطوق اللغوي أو المكتوب ولا يفرق بينهما، كما نجد عند فان دايك الذي يرى أنّ النص علامة لغوية ذات أشكال خاصة منتظمة، منطوقة أو مكتوبة، على أن تكون العلامات دالة ووظيفية في التواصل الإنساني[٤٧].

هذه المسألة توجه آخر يحصره في المكتوب، وهناك من لم يذكر هذه المسألة في تعريفه، فكان همه محصوراً في تحديد هوية النص من حيث الاتصال والترابط، والتفريق بينه وبين الجملة، كما دلل على ذلك الأزهر الزناد في نسيج النص.

وقد يبدو النص وكأنّه جهاز عبر لساني أو لغوي يعيد توزيع اللسان أو نظام اللغة عن طريق ربطه بالكلام التواصلي -أي يكشف العلاقة بين الكلمات التواصلية -رامياً بذلك إلى الإخبار المباشر، مع مختلف أنماط الملفوظات السابقة المعاصرة[٤٨].

ويتضح مفهوم النص جلياً عند روبرت دي بوجراند بتعريفه بين الجملة والنص بنقاط عدة، إذ نلحظ عنده انّ النص نظام، فقال له وجود تداولي، وهو ذو طبيعة اتصالية تعوّل على الموقف كثيراً في تجاوز المفهوم الصوابي النحوي بحسب قواعد الجمل، وينبغي أن يكون مقبولاً عند أبناء اللغة من حيث التكوين والنسيج، وأن يتصل بموقف يكون فيه[٤٩].

(٤٥) ينظر: مقالات في الأسلوبية، د. عباس/ ١٣٠ -١٣١، نحو النص -مبادئه واتجاهاته الأساسية، د. نعمان بوقرة/ ١٦، مجلة علامات، م ١٦، العدد ٦.

(٤٦) ينظر: علم لغة النص -المفاهيم والاتجاهات/ ١٠١.

(٤٧) ينظر: فان دايك، علم النص، عبدالقادر بوزيدة.

(٤٨) ينظر: انفتاح النص الروائي، د. سعد يقطين/ ١٨.

(٤٩) ينظر: النص والخطاب والإجراء، ترجمة د. تمام حسان/ ٨٨ -٩٤.

ويؤكّد الدكتور محمد مفتاح بعد إيراده جملة من المفهومات التي تحدد النص أنّ النص مدون كلامية، وهو في الوقت نفسه حدث زمكاني تواصلي وتفاعلي ومغلق في سمته الكتابية وتوالدي في انبثاقه وتوالده(٥٠).

أما الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف فيرى أنّه لا يمكن أن يصبح النص نصاً إلا إذا كان رسالة لغوية تشغل حيزاً معيناً، فيها جديلة مضفورة من المفردات والبنية النحوية، وهذه الجديلة تؤلف سياقاً خاصاً بالنص نفسه ينبت في المرسلة اللغوية كلها(٥١).

بعد هذا التطواف في ماهية النص وحدوده وتعريفاته ووظائفه عند دارسيه ومؤصلي مفهومه ومعناه، نستطيع أن نستخلص مفهوماً للنص يجمع بين أفانين القول فيه ممن سبق، فنقول: إنّ النص وحدة لغوية كلية مكتملة دلالياً منسجمة الأجزاء تشكل متتالية من الجمل بالدرجة الأولى -كما اعتبرها فان دايك- بغض النظر عن كونها شفاهية كانت أو مكتوبة، مشروطة فيها التواصلية والوظيفية؛ لأنّها ذات طابع تعبيري أو إبلاغي منسوجة بنسيج لغوي مخيطٍ بجملة من العلامات أو علاقة من العلاقات الرابطة التي متى انعدمت تلك العلاقة فلا وجود للنص حينئذ.

ويمتاز بأنّه ((دائم الإنتاج؛ لأنّه مستحدث بشدة، ودائم التخلق لأنّه دائماً في شأنٍ ظهوراً وبياناً، ومستمر في الصيرورة؛ لأنّه متحرك وقابل لكل زمان ومكان؛ لأنّ فاعليته متولدة من ذاتيته النصية، وهو إذ كان كذلك فإنّ وضع تعريف له يعتبر تحديداً يلغي الصيرورة منه، ويعطل في النهاية فاعليته النصية(٥٢).

وعليه يستخلص من بعض الدراسات الغربية المهمة نظرية النص أنّ تعريفه غير متغير، فهذا رولان بارت يرفض تعريف تودوروف للنص، ويعيب عليه تأثره بالبلاغة وينتهي إلى القول:

(٥٠) تحليل الخطاب الشعري -استراتيجية التناص/ ١١٩ -١٢٠.

(٥١) منهج في التحليل النصي للقصيدة، حج فصول، م ١٥، العدد ٢/ ١٠٨.

(٥٢) مقالات في الأسلوبية، منذر عباس/ ٢٠٧.

((نفهم الآن أنّ نظرية النص موضوعة في غير مكانها المناسب في المجال الحالي لنظرية المعرفة، ولكنها تستمد قوة معناها من تموضعها اللامناسب بالنسبة للعلوم التقليدية للأثر الفني...)) (٥٣).

وهذا ما دعا الدكتور عياشي إلى استخلاصه شيئاً من التراث سماه بـ (غيبة التعريف) بقوله: ((وإذا جاز لنا أن نستخلص شيئاً مما يقدمه التراث لنا بهذا الصدد فيمكننا أن نقول: إنّه غيبة التعريف)) (٥٤).

النص القرآني:

يعدّ النص القرآني بادئ ذي بدء نصاً لغوياً منسوجاً من جنس لسان العرب، مؤلفاً من جمل مترابطة تشكل عناصر ذات دلالات خاصة بها، وتتضافر هذه العناصر لتؤلف كلاماً يفيد قصداً دلالياً معيناً (٥٥).

غير أنّ لغة ليست مجرد مفردات وتراكيب، وإنما تحمل رؤية هادية للإنسان ومنظمة للحياة والكون أصلاً وغيباً ومآلاً، لذلك فإن البحث عن مفهوم النص...

إنّ البحث عن مفهوم (النص) ليس في حقيقته إلا بحثاً عن ماهية (القرآن) وطبيعته بوصفه نصاً لوياً، وهو بحث يتناول القرآن من حيث (هو كتاب العربية الأكبر وأثره الأدبي الخالد)، فالقرآن كتاب الفن العربي الأقدس، وعليه فإنّ البحث عن مفهوم النص ليس مجرد رحلة فكرية في التراث، ولكنه فوق ذلك بحث عن (البعد) المفقود، فالقرآن الكريم نص لغوي يمكن أن نصفه بأنّه يمثل في تاريخ الثقافة العربية نصاً محورياً، وعليه فقد وصفت الحضارة العربية الإسلامية بأنّها (حضارة النص)، بمعنى أنّها حضارة أنبتت أسسها وقامت علومها وثقافتها على أساس لا يمكن تجاهل مركز (النص) فيه.

ومما لا خلاف فيه أنّ النص في حقيقته وجوهره منتج ثقافي، والمقصود بذلك أنّه تشكل في الواقع والثقافة خلال فترة ربت على نيف وعشرين عاماً، ومن هنا فإنّ ألوهية مصدر النص لا تنفي واقعية محتواه ولا تنفي من ثمّ انتماءه إلى

(٥٣) المصدر نفسه/ ٢٠٨.
(٥٤) المصدر نفسه/ ٢٠٧.
(٥٥) القرآن الكريم ومناهج النقد الحديث، د. عبدالرحمن بودرع/ ١٢.

ثقافة البشر، ذلك بأنّ الله تعالى ذكره حين أوحى للرسول ﷺ بالقرآن اختار النظام اللغوي الخاص بالمستقبل الأول، وهو النبي ﷺ، وليس اختيار اللغة اختياراً لوعاء فارغ؛ ذلك بأنّ اللغة أهم أدوات الجماعة في إدراك العالم وتنظيمه، لذلك نجد أنّ القرآن يصف نفسه بأنّه رسالة، تمثل علاقة اتصال بين مرسل ومستقبل من خلال شفرة، أو نظام لغوي[٥٦]؛ ذلك بأنّ الرسالة الإبلاغية تحتاج إلى مقدمات ومحددات تخوضها لتصل بعد ذلك إلى هدفها المنشود وهو الإفهام والتأثير في المتلقي لتعود عليه بالفائدة المرجوة، وهذا ما أشارت إليه الآية المباركة بقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ... ﴾[سورة إبراهيم: ٤].

لذلك يرى الدكتور شكري عزيز ماضي أنّ النص القرآني الذي هو نص مكتوب (نص/ كتابة) يطرح إشكالية التصنيف، إذ ليس له شكل محدود ولا ينتمي إلى أي نوع من أنواع الكتابة المألوفة، فهو ليست له بؤرة مركزية، بل يتضمن بؤراً لا نهاية لها، وهو بلا بداية أو نهاية، بل له فاتحة ولكن ليست له بداية أو نهاية بالمعنى المألوف، حظي بهذا وسيبقى يحظى بتأويلات لا نهاية له، ذوات طاقة رمزية مطلقة، الإحالة المرجعية في النص القرآني على النص نفسه، وحقوق الطبع غير محفوظة لأحدٍ))[٥٧].

ولقد تنبّه الجرجاني إلى ذلك الجمال، وتلك الخصائص المميزة للنص القرآني، إذ رأى أنّ ((للكتابة القرآنية خصائص لم تعرف قبل نزول القرآن، ويرى أنّها لا تكمن في الكلمات المفردة قبل نزول القرآن في جمال حروفها وأصواتها وأصدائها ولا في معاني الكلمات المفردة التي لها بوضع اللغة ولا في تراكيب الحركات والسكنات، وفي المقاطع والفواصل، وإنما تكمن هذه الخصائص في النظم والتأليف الذين يقتضيان الاستعارة والكتابة

(٥٦) ينظر: مفهوم النص –دراسة في علوم القرآن، د. مضر حامد أبو زيد، التمهيد/ ٩ –٢٨.

(٥٧) النقد العربي الجديد، د. شكري عزيز ماضي/ ١٧٤.

والتمثيل وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون؛ لأنّه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم، وهي أفراد لم يتوخَ منها بينهما حكم من أحكام النحو))[٥٨].

وعليه فقد عدّ الدكتور منذر عياشي النص القرآني ممارسة نصية تامة لم يعرفها العرب في تاريخهم بقوله: لم يعرف العرب في تاريخهم ممارسة نصية تامة كما عرفوها مع القرآن، ولعل أولى مظاهر هذه الممارسة، كما يحلها التراث لنا، تكمن في الوقوف على النص في ذاتيته النصية، بتعبير رولان بارت، فذائية النص تجليها قراءة للمكتوب تجعل كلاماً يقوم بنفسه إزاء كلام آخر يظهر عبر إنجاز لغوي مختلف[٥٩].

وقد أدرك قدامى علمائنا هذا الأمر ولاسيما أصحاب إعجاز القرآن الذين حاولوا جاهدين بيان ذلك الإعجاز، وقد تنبه الباقلاني لذلك، فقال في بيان ذلك: ((إذا تأملته تبين بخروجه عن أصناف كلامهم، وأساليب خطابهم أنّه خارج عن العادة، وأنّه معجز، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن، وتميزٌ حاصل في جميعه))[٦٠].

وقد لاحظوا أنّ بين النص مكتوباً والخطاب ملفوظاً وحدةً لغوية، ولكنهم أدركوا أنّ الإنجاز يقف فيصلاً بين الطرفين، وهذا يذكرنا بنظرية (سوسير) في اللغة والكلام، أو بنظرية (تشومسكي) في الكناية والأداء، فالنص كلام، إلا أنّه يصدر عن ذاتيته النصية التي عملت على إنجازه وأدائه.

والكلام الآخر غير النص هو كلام أيضاً إلا أنّه خطاب شفوي عمل الشخص على إنجازه وأدائه[٦١]. وهذا ما جعل أبا عبيدة يقول في وصف القرآن إنّ: ((في القرآن ما في كلام العرب من الغريب والمعاني... إلى أن يقول: وكل هذا جائز

(٥٨) ينظر: دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، تح: محمد الداية، فايز الداية/ ٣٧٢.

(٥٩) مقالات في الأسلوبية، د. منذر عياشي/ ٢٠٢.

(٦٠) إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلائي، تح: السيد أحمد صخر/ ٣٥.

(٦١) مقالات في الأسلوبية/ ٢٠٣.

قد تكلموا به))[٦٢].

بعد تعريف النص اصطلاحاً وفقاً -أو على وفق -الدراسات العربية المعاصرة بأنّه كل بناء يتركب من عدد من الجمل السليمة مرتبطة فيما بينها بعدد من العلاقات، وتلك العلاقات والروابط تشكل بمجموعها السياق الذي تنتظم فيه الجمل والتراكيب لتكون النص[٦٣]؛ لأنّ السياق هو ما يدل على المراد من سابق الكلام أو لاحقه[٦٤]. وبناء على ذلك فثمة مقوم آخر للنص ألا وهو التأكيد على فعله التواصلي[٦٥].

وقد دلت نصوص في القرآن الكريم على وجود تلك الصلة الواضحة وأشارت إلى ذلك التأثير العملي في المتلقي بشقيه السامع والقارئ، إذ يتميز النص القرآني وتفرد بأنّه تواصلي ومؤثر في المتلقي له قراءة وسماعاً، وهذا ما أشارت إليه الآية المباركة: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ٢٠٤]. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [سورة فصلت: ٢٦].

وهذه الآية الكريمة تدل بوضوح على استشعار الكافرين بخطر تلقي القرآن على ضمائر سامعيه لإمكانية تغيير توجيهاتهم الفكرية والعقدية وطلبوا عدم الإنصات والاستماع لقراءته وضرورة اللغو وإحداث الضجة عند قرائته لئلا يصل إلى أسماعهم وأفئدتهم، ومن جانب آخر نجد الاتجاه الآخر حاضراً في دلالة النص القرآني بتوجيه خطابه إلى قارئيه بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾[سورة الإسراء: ٤٥].

وهي تدل على المباشرة بفعل القراءة وليس الاستماع، وتصور الأثر الكبير

(٦٢) مجاز القرآن، صنعة أبي عبيدة التميمي، تعليق د. محمد فؤاد سزكين/ ١٨ -١٩.

(٦٣) أثر النص القرآني في التعددية الدينية، د. نور الساعدي/ ١٧.

(٦٤) البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/ ٣١٧.

(٦٥) في مفهوم النص ومعايير نصية القرآن الكريم، د. بشرى البستاني، د. وسن عبد الغني، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، م ١١، العدد ١/ ١٨.

الذي سيترتب على تلك الممارسة الفعلية للقراءة، وعليه نستطيع أن نجد نوعين من التأثير في المتلقي عند تعاطيه مع النص القرآني وخطابه المميز، فتارة يكون الأثر إيجابياً على المتلقي فقد يكون عاملاً مساعداً في زيادة الإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿ ... وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا بَيِّنِكُمْ ... ﴾ [سورة الأنفال: ٢]. وكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [سورة التوبة: ١٢٤]. وقال تعالى: ﴿ ... إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٥٨]. ولا أدلّ من التأثير المادي في نفس المتلقي من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ... ﴾ [سورة المائدة: ٨٣]. وفي الاتجاه الآخر نجد نوعاً من التأثير العكسي في نفس المتلقي السلبي، وهذا ما صوره قوله تعالى في سورة التوبة بعد عرض حال المؤمنين: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ ... ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [سورة التوبة: ١٢٤ -١٢٥]. وكذلك نجد الكافرين قد يكادون ان يزلقوا النبي ﷺ: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾ [سورة القلم: ٥١]. ﴿ ... وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [سورة الإسراء: ٤٦]. ولا أدلّ على التأثير العكسي -المادي -عند المتلقي السلبي في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ... ﴾ [سورة الحج: ٧٢]. هذا قليل من كثير من تصوير القرآن الكريم لحال المتلقين له وكيفية ترك الأثر في نفوسهم وسلوكهم.

في ضوء ما تقدم، وما سيأتي من الحديث في شأنية القول القرآني وحيثيات حيويته وركائز شبابيته يمكننا القول: إنّ النص القرآني في إطار هذا التحديد هو عبارة عن تكوين معجز ينتج معناه بحركة تفاعلية مستمرة بين آياته من جهة

والمتلقي لها من جهة أخرى[٦٦]. وذلك بأنّ ((حركة النص القرآني متجددة ومفاهيمه تتخطى أبعاد الزمان والمكان، فهو لا ينتظر المتخلفين عن حركته، لذا دعا إلى تدبره لمنع المتلقي من الانزواء في حدود الإطار النزولي لآياته، أو التحدد بفهم ساذج ينحرف بالنص عن بيانه البعيد غوراً الذي يغوص في أبعاد ما كان للعقل البشري أن يسبرها بقدراته المحدودة بالغة ما بلغت))[٦٧].

لذلك انماز النص القرآني بأنّه كتاب الزمن كله والمكان كله والبشرية كلها، فهو ليس بنص عصر أو جيل أو مصر، ثم ينتهي بانتهائه، وهو غير قابل للتأقيت، لأنّه يتضمن كلمات الله الباقية وهدايته المستمرة، وعليه ((فمن يتناول هذا النص بالقراءة أو الفهم أو التفسير فليتناوله بهذه الروح، ولا ينبغي أن يخضع قسراً لمذهب أو تيار أو منهج، لأنّ الثقافات والأفكار والمناهج عرضة للتغير والتطور))[٦٨].

النصية:

لابدّ من التعريف بها والوقوف على معاييرها ومحدداتها ليتسنى لنا بعد ذلك معرفة تحقق تلك المعايير في النص القرآني من عدمه، وما أثر ذلك على النص القرآني؟. فالنصية هي ((طرق تستحضر لتكوين نحو نصي[*]، واستمرارية خطابية، وتتخذ -النصية -شكل تمثيلية سيميائية للخطاب، وتدل على توقف المسافة -التوليدية، خلال لحظة من سيرورتها وانحرافها إلى الظهور))[٦٩].

ومعنى هذا أنّ دراسة الأشكال النصية يراعى فيها جوانب اتصالية وتداولية وأسلوبية ودلالية ونحوية بصورة حتمية، وعليه لم يعد يكتفى بعلم يدرس العناصر اللغوية فحسيب، بل

(٦٦) أثر النص القرآني في التعددية الدينية، د. نور الساعدي/ ١٨.

(٦٧) مناهج المتكلمين في فهم النص القرآني، د. ستار الأعرجي/ ٩.

(٦٨) القرآن الكريم ومناهج النقد الحديث، د. عبد الرحمن بودرع/ ٤.

(*) الأصح أن يكون التعبير لتكوين نحواً نصياً.

(٦٩) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، عرض وتقديم وترجمة: د. سعيد علوشي/ ٢١٤-٢١٥.

لوحظ أنّ العناصر غير اللغوية لا تقل أهمية عن العناصر اللغوية[٧٠].

وقد انطلق كلّ من (بوجراند، ودرسيلر) من عجز الدراسات اللسانية السابقة في كشف نماذج مقبولة للنشاط الإنساني، وعدم صلاحية هذه الدراسات من الناحية العلمية لأية مجموعة من النصوص، وانعدام النظرة الواقعية فيها لقضايا مثل: النصوص الإعلامية، والتفاعل الاتصالي، وعليه فقد اقترح- بوجراند -معايير محددة تجعل النصية أساساً مشروعاً لإيجاد النصوص واستعمالها، وهي: (السبك أو التماسك، الربط أو الالتحام، القصدية، المقبولية، الإخبارية أو الإعلامية، والموفقية، التناص))[٧١].

النص القرآني ومعايير النصية:

يحلو لبعض الباحثين المعاصرين أن ينفوا عن القرآن الكريم كل مظاهر النصية الموحدة للقرآن الكريم، وأنّه ليس نصاً منسجماً بالمعنى الحديث الذي يستلزم درجة كبيرة من الترابط في مستوى التأليف اللغوي، فليس في القرآن - بزعمهم -نص مترابط، ولا ينسجم بل لا يوجد ذلك حتى في السورة الواحدة، وفي ذلك يقول الدكتور مصطفى تاج الدين في (التحليل اللساني وعالمية القيم الدينية): ((من الواضح أنّ التحليل اللساني للقرآن سيمكننا من الوصول إلى حقيقة بسيطة قلما انتبه إليها المختصون وهي أنّ القرآن ليس نصاً واحداً، فهو وإن كان كتاباً أو مصحفاً فليس نصاً منسجماً بالمعنى اللساني (Text) والمشتق من النسيج (Tex tile)، حيث يستلزم النسيج درجة كبيرة من الترابط في مستوى التأليف اللغوي كالترابط والانسجام، وكذا في مستوى الوحدة الموضوعية بالإضافة إلى وحدة السياق، وهذه العناصر نجدها غائبة في القرآن الكريم، بل وفي السورة الواحدة على الرغم من المحاولات الجادة والمتكلفة لبعض الدراسات حول التفسير الموضوعي للقرآن التي تشبه في تكلفها البحث عن المناسبة الموضوعية بين

(٧٠) علم لغة النص -المفاهيم والاتجاهات، سعيد بحيري/ ١٤٨.
(٧١) ينظر: النص والخطاب، بوجراند، ترجمة: د. تمام حسان/ ١٠٣ -١٠٥.

السورة والتي متاع التأليف فيه في المراحل المتأخرة من تاريخ علم التفسير))[٧٢].

وأحسب أن الدكتور تاج الدين ومن شاكله من الباحثين قد غاب عنهم أنّ الخطاب ما هو إلا نص وظروف إنتاجه. وإذا ما صحّ أن يطلق أولئك الباحثون لفظ الخطاب على ذلك الكلام المكنون في كتاب كريم، فمن الأولى أن يوصف بأنّه نص –وإن فارق بعض معايير النصية التي اقترحها بوجراند، ذلك بأنّ النص وظروف إنتاجه وسياقه الداخلي يشكل بمجموعه الخطاب، أما إذا ما انتقلنا إلى الوجهة اللسانية الأخرى التي تفرّق بين النص والخطاب بالملفوظ والمكتوب كما يعرف –بول ريكور –النص بأنّه: ((خطاب مثبت بواسطة الكتابة))[٧٣].

لذلك سيكون القرآن الكريم خطاباً باعتبار لفظه –أي أنّه نزل ملفوظاً –ونصاً باعتباره مكتوباً، أي خطاب مثبت بواسطة الكتابة، وهذا ما أشار إليه الدكتور محمود عكاشة بقوله: ((النص: اللفظ الثابت تدويناً أو محفوظاً، وقد اخترت مصطلح (النص) في دراسة الشعر، لأنّه في شكله الثابت أقرب إلى مفهوم النص من الخطاب، بيد أنّ الأخير –أي الخطاب – يرجّح في الحديث عن القرآن الكريم؛ لأنّه خطابٌ موجّه متجدد الإرسال))[٧٤].

فليت شعري عن أي تماسك يبحث أولئك الدارسون، أو عن أي انسجام يتحدثون، وهل ترى في القرآن الكريم موضعاً لا يهديك لفظه على حسنه، ويدلك معناه على تناسقه وانسجامه؟! فارجع البصر ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير.

لذلك نجد الدكتور منذر عياشي يعمم القول بنفي معرفة العرب ممارسة نصية تامة في تاريخهم، كما عرفوها مع القرآن بقوله: ((لم يعرف العرب في

(٧٢) التحليل اللساني وعالمية القيم الدينية، د. المصطفى تاج الدين، مجلة الإحياء، العدد ٣٢–٣٣، لسنة ٢٠١٠ م/ ١٧٣–١٧٤.

(٧٣) مقالات في الأسلوبية، د. منذر عياشي/ ١٣٣، وكذلك ينظر: الخطاب القرآني، د. خلود العموش/ ١٨.

(٧٤) تحليل النص –دراسة الروابط النصية في ضوء علم اللغة النصي، د. محمود عكاشة/ ١٥.

تاريخهم ممارسة نصية تامة، كما عرفوها مع القرآن))[٧٥].

وهذا ما تنبّه له الجرجاني بإشارته إلى ذلك الترابط النصي والتماسك النسقي والانسجام النظمي[٧٦]. وقد بيّن ذلك جلياً سيد قطب في تقصويره الفني، وأشار إلى أنّ جمال القرآن الكريم ليس في كونه أجزاءً وتفاريق، وإن كان للأجزاء جمال وسحر، ولكن جماله في كونه جملة موحدة تقوم على قاعدة خاصة، فيها من التانسق العجيب ما لا يدركه إلا من عرف قيمته، وعانى قراءته ومدارسته ووقف على صميم النسق القرآني الذي هو منبع التأُير والسحر[٧٧].

ولولا ذلك التأثير وسحر البيان المعجز في آياته وسوره لما عمد الكفار إلى منع بعضهم بعضاً الاستماع إليه وتواصوا فيما بينهم بإثارة الضوضاء واللغو فيه عند قراءته، ظناً منهم استطاعتهم إخفاء ذلك الجمال اللفظي والسحر البياني والتوليد الدلالي، وذلك ما حكاه لنا الرب الجليل بلسان عربي مبين، إذ قال تعالى على لسان الكافرين: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ [سورة فصلت: ٢٦].

وكما هو واضح من كلام ديبوجراند المتقدم أنّه قد جعل تلك المعايير مقترحاً وليس فرضاً تفسر عليه النصوص، إذ يقول في ذلك: ((وأنا أقترح المعايير التالية لجعل النصية أُساً مشروعاً لإيجاد النصوص واستعمالها.. . والربط، الالتحام، القصد، القبول، رعاية الموقف، التناص، الإعلامية))[٧٨].

وقد حدّد معيارين من تلك السبعة لهما صلة وثيقة بالنص وهما (السبك الالتحام)، وجعل اثنين منهنّ نفسيين بصورة واضحة، وهما (رعاية الموقف، التناص)، أما معيار (الإعلامية) فهو

(٧٥) مقالات في الأسلوبية، د. منذر عياشي/ ٢٠٢.

(٧٦) ينظر: دلائل الأعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، تح: د. محمد الداية، د. فايز الداية/ ٣٧٢.

(٧٧) ينظر: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب/ ١١ -١٧.

(٧٨) النص والخطاب والإجراء، ترجمة: د. تمام حسان/ ١٠٣ -١٠٦.

بحسب التقدير[٧٩]. ثمّ يتوِّج تلك المعايير بوصفها بداية متواضعة تحتاج إلى كثير متابعة وطول تأمل، فنراه يقول: ((ولي أمل أن أقق هنا بداية متواضعة في سبيل معايشة هذه المعايير. وأؤكد أنّ مقترحاتي لابدّ أن تكون مبدئية في انتظار بحث أكثر شمولاً، غير أنّني على الأقل حاولت أن أعمل باستبصار معقول قدر الطاقة في ضوء طائفة تجمعت لدي من البحوث الحديثة[٨٠].

وبهذا فقد تبين لنا جلياً أنّ تلك المعايير النصية ليست مقدسة، ولم تكتسب درجة اليقين العلمي، وهي بحاجة إلى بذل المزيد من البحث والدراسة للوصول به-أي المقترح -إلى درجة الاعتماد وصحة الاستدلال.

لذلك نجد من الباحثين من توقف عن المعيارين الأوليين فقط الذين لهما صلة وثيقة بالنص -كما قال جراند -ينطلق منهما في إثبات نصية القرآن الكريم، مثل الدكتور عبدالرحمن بودرع في بحثه في لسانيات النص وتحليل الخطاب، إذ جلع من معياري التماسك والانسجام أساساً مهما في إثبات نصية القرآن الكريم، إذ يقول: ((عندما نتحدث عن الانسجام والتماسك في النص فإنما نتحدث عن معيارين رئيسين من معايير بناء النص أو ما يدعى بالنصية))[٨١].

ونجد آخرين قد وسعوا من دائرة استعمال تلك المعايير فجعلوها أربعة أساسية وممكنة التطبيق على النص القرآني، ورأوا عدم ضرورة توافرها مجتمعة سباعية ليقاس عليها نصية النص، مثل الدكتورة بشرى البستاني، والدكتورة وسن عبد الغني في دراستهما البحثية في مفهوم النص ومعايير نصية القرآن الكريم -دراسة نظرية -، إذ قالتا فيه: ((وتجدر الإشارة إلى أنّ تحقق النصية لا يلزم تحقق المعايير السبعة في كل نص، إذ يمكن أن تتشكل نصوص بأقل قدر من هذه المعايير، ولعلّ أهم أربعة معايير

(٧٩) ينظر: المصدر نفسه.
(٨٠) المصدر نفسه/ ٩٦.
(٨١) في لسانيات النص وتحليل الخطاب -نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم، د. عبدالرحمن بودرع/ ٣٠.

تحقق نصية النص تتجسد في: الربط، التماسك، القصدية، الموقفية، وهذا يتناسب مع قدسية القرآن))[٨٢].

وقد ذهب بعض النقاد إلى أبعد من ذلك فأطلقوا تسمية النص على النص القرآن وحسب، ذلك بأنّه يتسم بكل صفات النص حتى غدا وكأنّه يقصر لفظ (نص) على النص القرآني وأعني بذلك (أدونيس) الذي قال في مميزات النص القرآني: ((إنّ النص القرآني يتجاوز الشخص –الله الذي أوحاه –ونقله إلى النبي ملاك، وبلّغه النبي إلى الناس... هكذا يُقرأ النص القرآني بوصفه نصاً يجمع في بنيته أشكال الكتابة جميعاً، كأنّه أعاد الأبجدية إلى فطرتها قبل الكتابة وفيما وراء الأنواع الكتابية))[٨٣].

تعقيب ورأي:

بعد هذا واذاك من الأقاويل في شأنية النص ومعاييره وإمكان تحقق ذلك في النص القرآني من عدمه يمكننا القول: إنّ القرآن الكريم يعد نصاً متكاملاً وممارسة نصية تامة، كما سنعده خطاباً في الوقت ذاته لاحقاً؛ ذلك بأنّه قد صدق عليه قول المؤصلين للنص والنصية كـ (بول ريكور) مثلاً وغيره من الذين عدّوا النص خطاباً مثبت بواسطة الكتابة، وهل القرآن الكريم إلا كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون؟!.

ومن جهة أخرى فإنّ النظرية النصية بمعاييرها السبعة قد وضعت من لدن البشر الذي يعتوره النقص ومشوبه النسيان، فهي لم تك نصاً مفروضاً، بل وضعت على هيئة مقترح تقدم به ديبوجراند لم يكتسب الدرجة القطعية من النضج العلمي، إذ أمّل أن ينضج مقترحه بمزيد من البحث في ذات الموضوع، وكذلك فهو كان قد حدد المعيارين الأولين فقط من تلكم المعايير السبعة بأنّ لهما الصلة الوثيقة بالنص وعليهما يعوّل في تسمية النص بالدرجة الأولى.

وعليه فإنّنا لا نرى ضيراً في إطلاق

(٨٢) في مفهوم النص ومعايير نصية القرآن الكريم –دراسة نظرية، د. بشرى البستاني، د. وسن عبدالغني، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، م ١١، العدد ١/ ١٨١.

(٨٣) النص القرآني وآفاق الكتابة، أدونيس/ ٢٠-٣٤.

مصطلح (النص) على القول القرآني؛ ذلك بأنّه كلام مثبت بواسطة الكتابة، وهذا أصل تعريف النص عند كثير من الباحثين، وأشهرهم (بول ريكور)، ومن جهة أخرى فإنّ النص القرآني تتوافر فيه ا لتواصلية والإبلاغية، وينشر قصداً في خطابه، ويترك أثراً في متلقيه سلباً أو إيجاباً، كما تقدم الكلام في ذلك، وأيضاً من مبررات قولنا بصلاحية ذلك هو أنّنا نلزم المحدثين ونؤاخذهم بما آخذوا به النحويين وغيرهم من اللغويين القدامى وعابوا عليهم تقعيد القواعد، ومن ثمّ عرض القرآن عليها، وبذلك سيكون القرآن الكريم تابعاً لا متبوعاً.

وعليه لا يمكن أن نُحكّم معايير نصية مقترحة لم تنضج بعد لتكون حاكماً على القرآن الكريم في صدق وصفه بالنصية من عدمها، ولو تدبرنا القرآن الكريم كما أُمرنا بذلك بقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[سورة محمد: ٢٤] لوجدنا مبدعه -تعالى شأنه -قد سماه تسمية جمعت بين سمات النص وأركان الخطاب كليهما في عرف اللسانيين والحداثويين بقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ... ﴾ [سورة الزمر: ٢٣].

فكما نرى من جهة أولى قد أسماه (حديثاً)، وهل الحديث إلا الملفوظ، أو الكلام المنطوق؟!. ومن جهة أخرى قد وصف ذلك الحديث نفسه بأنّه كتاب أحكمت آياته من لدن حكيم خبير، وهل الكتاب إلا ما جع بين الدفتين من الكلام المثبت بواسطة الكتابة؟!. ثم انظر إلى أحداث التأثير في المتلقي الإيجابي، كيف يتأثر بذلك الخطاب الراحم فيقشعر منه الجلد، ثم تلين له القلوب وتذعن له الجوانح وتسجد له الجوارح!. فليت شعري هل ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴿ ... فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾!!. وصدق الله منزل الكتاب المبين بلسان عربي مبين، حيث يقول: ﴿ ... وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[سورة النساء: ٨٢].

لذلك إذا تأملته تبيّن بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم أنّه خارج عن العادة، وأنّه معجز، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن وتميّزٌ حاصل في جميعه[٨٤].

الدلالة اللغوية للخطاب:

وردت مادة (خ، ط، ب) في المعاجم العربية بصيغها الاشتقاقية المتعددة من فعل ومصدر واسم وفاعل وغيرها، دالة على معانٍ متعددة، فقد ذكر ابن منظور في لسانه: ((يقال: خاطبه يخاطبه خطاباً، الخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً وهما يتخاطبان))[٨٥].

وذكر ابن فارس في مقاييسه: ((الخطاب الكلام المتبادل بين اثنين، يقال خاطبه مخاطبة، خطاباً، والخُطبة من ذلك، والخطبة الكلام المخطوب به... والخِطْبُ: الأمر يقع، وإنما سمي ذلك لما يقع فيه من التخاطب والمراجعة))[٨٦].

ويذكر الزمخشري في أساسه أنّ هذا المصطلح الذي يبينه من يخاطب به، والخطاب أيضاً هو الكلام المبين الدال على المقصود بلا التباس))[٨٧].

وقد جاء في مختار الصحاح في مادة (خ، ط، ب): ((الخُطب: سبب الأمر، تقول: ما خطبُك أي أمرك، وتقول هذا الخطب جليل، وخطب علي يسير، وجمعه خُطوب، وخاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً، وخطب على المنبر خُطبة بضم الخاء))[٨٨].

وذكر الراغب في مفرداته: ((الخطب والمخاطبة والتخاطب المراجعة في الكلام، ومنه الخُطبة والخِطبة، لكن الخطبة تختص بالموعظة، والخِطبة بطلب المرأة، ويقال من الخُطبة خاطبٌ وخطيبٌ، ومن الخِطبة خاطب لا غير، والفعل منها خَطَب. والخطْب الأمر العظيم الذي يكثر فيه

(٨٤) إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، تح: السيد أحمد صخر/ ٣٥.
(٨٥) لسان العرب ٢/ ٨٥٦، مادة: خطب، دار لسان العرب.
(٨٦) معجم مقاييس اللغة ٢/ ١٩٨، تح: عبد السلام هارون.
(٨٧) أساس البلاغة، تح: محمد أحمد/ ٢٢٢-٢٢٨.
(٨٨) مختار الصحاح ١/ ٢٣٨.

التخاطب، وفصل الخطاب ما ينفصل به الأمر من الخطاب))[٨٩].

وكما بدا واضحاً أنّ الراغب قد خصص عاماً في الدلالة، أعني بذلك (الخطب)، إذ هو الشاذ، والأمر صغر أو عظُم، فنقول: هذا خطب جليل، وخطبٌ يسير، والخطب كذلك الأمر الذي تقع فيه المخاطبة أي سبب الأمر كما عند الجوهري وابن منظور.

وقد عرّفه النهاوندي بأنّه: توجبه الكلام نحو الغير للإفهام، والخطاب: اللفظ المتواضع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه))[٩٠].

وقريب من هذا التعريف ما قاله الكفوي في كلياته: ((الخطاب هو الكلام الذي يقصد به الإفهام، وإفهام من هو أهل للفهم، والكلام الذي لا يقصد به إفهام المستمع، فإنّه لا يسمى خطاباً))[٩١].

وقد حدّده الطريحي بقوله: ((الخطاب هو توجه الكلام نحو الغير للإفهام، وقد ينقل إلى الكلام الموجه)[٩٢].

وفي المعاجم الحديثة نجد الخطاب يأتي بمعنى الحديث والقول، فقد ورد في المعجم الوسيط: ((خاطب خِطاباً ومخاطبة: كالم أو كلم أو تحادث مع آخر))[٩٣].

ويقول العناني في معجمه: ((الخطاب هو المكالمة أو المواجهة بالكلام أو ما يخاطب به الرجل صاحبه))[٩٤].

وقد يكون الخطاب بمعنى الرسالة، وهذا ما جاء في معجم المصطلحات العربية، إذ ورد فيه (الخطاب، الرسالة)، وهو نص مكتوب ينقل من مُرسل إلى مرسَل إليه))[٩٥].

ويكاد يتقرب المعنى اللغوي في معاجم العربية مما جاء في المعجم الغربي كلمة (Discourse) التي اصطلح عليها

(٨٩) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني/ ١٥٦ -١٥٧.
(٩٠) ينظر: الصفحة السابقة من البحث.
(٩١) كشاف اصطلاحات الفنون، النهاوندي، مجلد ٧٤٩.
(٩٢) مجمع البحرين، فخرالدين الطريحي، م ١/ ٣٢٦.
(٩٣) المعجم الوسيط/ ١٩٢.
(٩٤) معجم الأخطاء الشائعة/ ٧٩.
(٩٥) معجم المصطلحات العربية في اللغة والآداب، مجدي وهبة وكامل المهندس/ ٩.

في الترجمة العربية بـ (الخطاب) والتي تعني: حديث، محاضرة، مقالة))[٩٦].

وقد أشار الجابري إلى أنّ الخطاب نوع من القول تجتمع فيه الصنعة اللفظية والحجج المقنعة مع عدم الإثقال على السامع[٩٧]، وهذا ما أشار إليه الجاحظ في مفهوم فصل الخطاب من أنّه قدرة المتكلم على إيصال رسالته من أيسر الطرق دون كلفة بقصد التأثير في المتلقي[٩٨].

وعليه فإنّ الخطاب لغة هو الكلام الحامل لرسالة في المعتمد على سلطة لتبليغها، أو كما يقول الجاحظ مبناه على مخاطِب ومخاطَب، وعناصر القول المؤثرة في المخاطبين من إقامة الحجة باستعمال آليات اللغة كالتوكيد والتقديم والتأخير واختيار الألفاظ المناسبة لها...))[٩٩].

لذلك فإنّ الخطاب كما يظهر في الدراسات المختلفة عملية اتصال تنم في إطارين: الإطار اللغوي، فقد يكون متوالية من الجمل المكتوبة أو المنطوقة، ينتجها مرسل واحد أو عدة متخاطبين كما يحدث في الحوار أو غيره، وإطارٌ غير لغوي يشمل العادات والأعراف والتقاليد والأخلاق... وهو ما أطلق عليه مصطلح (إثنوجرافيا الخطاب)[١٠٠].

ولعل الكفوي قد أجاد حينما لم يفسر معنى الخطاب على الإطار اللغوي، ولم يحصره في دلالته الظاهرة، بل أضاف عنصراً جديداً إلى التعريف، وجعله قسيماً للدلالة اللفظية، وهو الجانب النفسي وضرورة أخذه بالحسبان ومراعاة أثره في توجيه دلالة الخطاب، فيقول في ذلك: ((والكلام يطلق على العبارة الدالة بالوضع، وعلى مدلولها القائم بالنفس، فالخطاب إما الكلام اللفظي أو الكلام النفسي الموجه نحو الغير للإفهام))[١٠١].

ولا ريب أنّ هذه إضافة نوعية للتعريف

(٩٦) لغة الخطاب السياسي -دراسة لغوية تطبيقية في ضوء نظرية الاتصال/ ١٥.

(٩٧) بنية العقل العربية، د. محمد عابد الجابري ٢/ ٣٥.

(٩٨) ينظر: البيان والتبيين، الجاحظ، تح: عبد السلام هارون ١/ ١١٤.

(٩٩) المصدر نفسه.

(١٠٠) الخطاب القرآني، د. خلود العموش/ ٢٣.

(١٠١) الكليات، القسم الثاني، تح: عدنان درويش/ ٢٨٦.

توحي بعنصر السياق))[١٠٢].

الدلالة الاصطلاحية للخطاب:

يتحدد مفهوم الخطاب ودلالته الاصطلاحية في الثقافة العربية -بوصفه مصطلحاً واضح الدلالة -انطلاقاً من القرآن الكريم، واعتماداً على التفاسير التي قامت على بعض آياته، وهذا ما اتضح عند الوقوف بين يدي المعاجم العربية التي أشارت إلى معانٍ قريبة جداً لتلك المعاني التي وردت في التفاسير مستشهدين على ذلك بنصوص الآيات الكريمة من الذكر الحكيم، وخاصة عندما يكون الكلام في فصل الخطاب، ولعل أوضح م نجده من دلالة الاصطلاح للخطاب عند الأصوليين من العرب الذين كان لهم قصب السبق في تحديد الدلالة الاصطلاحية للخطاب والإفادة منها في التشريع والتفسير لآيات الأحكام ومعرفة دلالة الخطاب القرآني.

وعليه فقد عرّف الآمدي الخطاب بأنّه: ((اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه))[١٠٣].

وعرّفه الجرجاني بأنّه: ((المعنى المركب الذي فيه الإسناد التام))[١٠٤].

وقد كان للمفسرين قول في تحديد دلالة اصطلاح الخطاب وفصله، إذ قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [سورة ص: ٢٠]: ((بمعنى فصل الخطاب: البيّن من الكلام المخلص الذي بينته من يخاطب به لا يلتبس عليه... ويجوز أن يراد: الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مخل والا إشباع ممل..))[١٠٥].

وقريب من هذا ما ذكره الفخر الرازي في تفسيره بقوله: ((... ويحصل ذلك بالنطق والخطاب، والناس مختلفون في مراتب القدرة على التعبير عما في الضمير، وأقدرهم أقدرهم على ضبط المعنى،

(١٠٢) الخطاب القرآني، د. خلود/ ٢٣.

(١٠٣) الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي، علق عليه الشيخ عبدالرزاق عفيفي ١/ ٣٩، ط ١، ٢٠٠٣، السعودية.

(١٠٤) التعريفات، الشريف الجرجاني/ ١٩٤.

(١٠٥) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٨٠، تح: مصطفى حسين أحمد.

والتعبير عنه إلى أقصى الغايات؛ لأنّ فصل الخطاب عبارة عن كونه قادراً على التعبير عن كل ما يخطر بالبال، ويحضر في الخيال، بحيث لا يخلط شيء بشيء، وبحيث ينفصل كل مقام عن مقام))[١٠٦].

وقال الطاهر بن عاشور: ((فصل الخطاب: بلاغة الكلام وجمعه للمعنى المقصود بحيث لا يحتاج سامعه إلى زيادة تبيان))[١٠٧].

وهكذا نجد أنّ مفهوم الخطاب عند العرب القدامى قد تطور ليستوي موضوعاً مستقلاً، بل إنّ العرب حاولوا أن يطوروا نظرية في النص خدمة لأداء المعنى ودراسته، وهذا يعني أنّهم قد تجاوزوا المفهوم اللفظي للكلام، والمفهوم الجملي، ليستقر عندهم أنّ المتكلم في تعبيره عن حاجاته لا يتكلم بألفاظ ولا بجمل، ولكن من خلال نص، فاتسعت بهذا أمامهم دائرة البحث الدلالي، وانتقلوا من البحث في مفردة أو جملة إلى البحث في خطاب يتم فيه تحميل المفردات والجمل بدلالات يقتضيها موضوع الخطاب))[١٠٨].

لذلك نجد علماء العربية قد حاولوا توسيع دلالة (الخطاب) وتطويرها بالبحث التفصيلي في عناصره، وتنبههم إلى دور المتلقي في عملية إنتاج المعنى والدلالة، وهذا ما نلحظه عند أبي حامد الغزالي الذي وضع شروطاً خص بها المتلقي بعد تعريفه الخطاب وذكره عناصره، إذ يقول في ذلك: ((... بأن يخلق الله تعالى في السامع علماً ضرورياً بثلاثة أمور: بالمتكلم، وبأنّ ما سمعه من كلامه وبمراده من كلامه، فهذه ثلاثة أمور لابدّ وأن تكون معلومة))[١٠٩].

وإلى مثل ذلك أشار الفخر الرازي بقوله في فصل الخطاب: ((واعلم أنّ أجسام هذا العالم ثلاثة أقسام... وثالثها الذي يحصل له إدراك وشعور ويحصل عنده قدرة على تعريف غيره الأصول

(١٠٦) التفسير الكبير، الفخر الرازي ٢٦/ ١٦٤.

(١٠٧) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٢٣/ ٢٢٩.

(١٠٨) اللسانيات والدلالة (ملكة)، منذر عياشي/ ٧، عن تحليل الخطاب.

(١٠٩) المستصفى من علم الأصول، الغزالي ١/ ٢٢٩.

المعلومة له، وذلك هو الإنسان وقدرته على تعريف الغير الأموال المعلومة عنده بالنطق والخطاب، ثم إنّ الناس مختلفون في مراتب القدرة على التعبير عما في الضمير.. . وفهم من يكون قادراً على ضبط المعنى والتعبير عنه إلى أقصى الغايات، وكل ما كانت هذه القدرة أقل كانت تلك الآثار أضعف؛ لأنّ فصل الخطاب عبارةعن كونه قادراً على التعبير عن كل ما يخطر بالبال، ويحضر في الخيال، بحث لا يختلط شيء بشيء، وبحيث ينفصل كل مقام عن مقام))[١١٠].

على الرغم من تطور فهم الخطاب عند العرب القدامى واستقلال موضوعه ومحاولة العرب تطوير نظرية في النص خدمة لأداء المعنى ودراسته، وتجاوزهم المفهوم اللفظي للكلام والمفهوم الجملي، ليستقر عندهم بعد ذلك كله إرادة تعبير المتكلم عن حاجاته من خلال نص معين وليس بألفاظ وجمل وحسب.

وعليه فقد اتسعت أمامهم دائرة البحث الدلالي، لذلك نجدهم قد انتقلوا من البحث في مفردة أو جملة إلى اللبحث في خطاب يتم فيه تحميل المفردات والجمل بدلالات يقتضيها موضوع الخطاب[١١١].

إلا أنّ مفهوم الخطاب في النقد العربي الحديث ليس امتداداً وتطويراً للمفهوم العربي القديم، إذ استبدله النقاد العرب المحدثون بالمفهوم الغربي واجتذابه القسري خارج حقله الدلالي وشحنه بدلالات غريبة عنه، وذلك بتأثير مباشر من المحمول الدلالي لمصطلح الخطاب (Discourse) الذي تغلغل في ثنايا الشبكة الدلالية لمصطلح العربي، وقوضه أو كادج من الداخل بحجة تحديث دلالة المصطلح من جهة وما تقتضيه الثقافة الحديث من جهة أخرى[١١٢].

وللغويين العرب تأسيس لدلالة

(١١٠) التفسير الكبير، الفخر الرازي ٢/ ١٨٧-١٨٨.

(١١١) ينظر: اللسانيات والدلالة والكلمة، منذر عياشي/ ٧، عن تحليل الخطاب في النقد العربي الحديث، مها محمود/ ١٢.

(١١٢) الثقافة العربية الحديثة والمرجعيات المستعارة، عبد الله إبراهيم/ ١٣٦، ط ١، بيروت، تحليل الخطاب في النقد العربي الحديث/ ١٣.

الخطاب كما كان للأصوليين ذلك، إذ يطالعنا الجاحظ في بيانه بإشارات وتصريحات لمعنى الخطاب ومادته في غير موضع من كتابه البيان والتبيين، فنراه يشيد بالكميت خطيباً بقوله: ((وقال الكميت بن زيد وكان خطيباً: إنّ للخطبة صعداء، وهي على ذي اللب أرمى))[١١٣].

وقال أيضاً: ((وفي الخطباء من يكون شاعراً ويكون إذا تحدث أو وصف أو احتيج بليغاً منوهاً بيناً، وربما كان خطيباً فقط وبين اللسان، ومن يجمع الشعر والخطابة قليل... ومن الخطباء الشعراء الكميت بن زيد الأسدي وكنيته أبو المستهل))[١١٤].

وهل تسمية كتابه بـ (البيان والتبيين) إلا ثنائية الفهم والإفهام، فالبيان إرسال الخطاب بصفاته وركائزه، والتبيين هو نتيجة ذلك الجهد الفني للإنسان المبدع، وهو الهدف المنشود أي ثناية الفهم والمفهم.

وإذا ما طالعنا كامل المبرد فسنرى وصفه واشتراطه في الخطاب الألفاظ القريبة المفهمة، الحسنة الوصف، الجميلة الرصف -أي النظم -فنراه يقول: ((من كلام العرب الاختصار المفهم والإطناب المفخم، وقد يقع الإيماء إلى الشيء فيغني عند ذوي الألباب عن كشفه، كما قيل لمحة دالة... فمن ألفاظ البينة القريبة المفهمة الحسنة الوصف الجميلة الرصف))[١١٥].

وكذلك نجد ابن وهب الكاتب في برهانه قد أشار إلى الخطاب بقوله: ((إنّ الخطابة مأخوذة من خطب أخطب خطابة.. . واشتف ذلك من الخطب؛ وهو الأمر الجليل؛ لأنه إنما يقام بالخطب في الأمور ا لتي تحل، والاسم منها خاطب مثل راحم، فإذا جُعل وصفاً لازماً قيل خطيب... والخطابة والخطاب اشتقاق من الخطب والمخاطبة لأنهما مسموعان))[١١٦].

فالخطاب حسب ابن وهب هو المشاركة في الفعل وهو ما دلت عليه

(١١٣) البيان والتبيين ١/ ١٣٤.
(١١٤) المصدر نفسه ١/ ٣٨٣.
(١١٥) الكامل في اللغة والأدب، المبرد/ ١٧.
(١١٦) البرهان في وجوه البيان، ابن وهب الكاتب/ ١٥١.

صيغة المفاعلة (المخاطبة)، وكأنّه يؤكد على وظيفة الخطاب.

قيل هذا نص الجرجاني: واختلف عبدالقاهر الجرجاني عن النقاد السابقين إلا أنّ مفهوم الخطاب في النقد العربي الحديث...

في فهمه للخطاب، إذ إنّ نظرية النظم تقوم على تقديم المعنى وجعل الألفاظ تابعة له، والتمييز لا يتعلق بمعاني الألفاظ مفردة دون تقدير لمعاني النحو، فالمعنى هو كيفية التحكم، ولذلك لا مزية للألفاظ على المعاني وإنما المزية في ائتلافها معاً في النظم.

فالخطاب هو المنطلق عند عبدالقاهر الجرجاني، والمعنى يتكون داخل الخطاب في إطاره لعلاقات والتراكيب النحوية، لذلك فالخطاب عنده شفرة بين المبدع والمتلقي، وكلما أوعر الأول في تعميقها كان الآخر أمكن في فكها وفهمها، حيث يوظف خاصة التلقي لديه[١١٧].

ويتضح معنى الخطاب أكثر عند ابن خلدون الذي شبّه عملية التخاطب في نظام دوالها ومدلولاتها بعملية اختلاف الأواني والماء، فكما أنّ الأواني التي يُغرف بها الماء من البحر من آنية الذهب والفضة والصرف والزجاج والخزف، والماء واحد في نفسه تختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء، كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه[١١٨].

وعليه نجد ابن خلدون يحدد الخطاب بقوله: ((إنّ الكلام الذي هو العبارة والخطاب إنما سره وروحه في إفادة المعنى، وأما إذا كان مهملاً فهو كالموت الذي لا عبرة به))[١١٩].

وبهذا يتضح أنّ مصطلح الخطاب أصل لفظاً في العربية (مادة: خطب) وأصل اصطلاحاً في علوم التفسير والأصول واللغة والأدب والمناظرو والخطابة، وهو فرع في علم الأداء الصوتي

(١١٧) الخطاب الأدبي بين التراث العربي والفكر الغربي/ ١٢.

(١١٨) ينظر: المقدمة، ابن خلدون ٢/ ٧٤٨، تونس.

(١١٩) المصدر نفسه/ ١١١٨.

والتعبير في معاهد الدعوة والخطابة والفنون والصوتيات والتشخيص، وقد اشتهر في العلوم الإنسانية الحديثة في مجالات السياسة والإعلام واللسان والنقد والبلاغة والأدب، ويعد من المصطلحات الأكثر شيوعاً، ويرجع هذا إلى شيوعه في الخطاب الإعلامي الغربي والسياسي وحقول اللغة))[١٢٠].

الخطاب في اللسانيات:

إنّ مفهوم الخطاب اللساني حديث نسبياً، وتحديده من الأمور المستعصية، نظراً للتطور الذي حل في علم اللسانيات التي تندرج تحته، فقد اختلط مفهوم الخطاب والتبس بغيره من المصطلحات، وبخاصة مصطلح النص، لأنّها ظلت تلازمه في المعنى، وترادفه في الاستعمال، كما أنّ توظيفه في البحوث النقدية المعاصرة عرف ارتباكاً كبيراً، ومن الأدلة على ارتباك المصطلح في الاستعمال ما نراه عند (سيمسليف)، حيث يعوضه بالنص، ويضعه بدله، كما جعله (جيلام غيروم) مرادفاً للسان[١٢١].

لذلك يمكن القول: إنّ للخطاب جذوراً في اللسانيات، لكونه يستمد وجوده من ثنائية اللغة والكلام التي قال بها دوسوسير في محاضراته الشهيرة، وله كذلك جذور في الأسلوبيات، سواء من واجهتها القديمة التي تعنى بالبلاغة إلى جانب قواعد اللغة، أو من واجهتها الحديثة التي راعت النظام الصوتي والتركيب المورفولوجي، والبناء الدلالي، أي الملفوظ الذي يراه اللسانيون نصاً، ويراه النقاد خطاباً، سلوكه اللغوي تظهر فيه جدلية الصراع بين الدوال والمدلولات[١٢٢].

وعليه نجد أنّ هذا المصطلح لم يكن أوفر حظاً من مصطلحات كثيرة علمية لسانية، نقدية معاصرة على المستويين: المصطلح والمفهوم، فقد حظي بتعريفات

(١٢٠) تحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة، د. محمود عكاشة/ ١٦.

(١٢١) تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، د. عبد القادر شرثار/ ١٢.

(١٢٢) الخطاب الأدبي في التراث العربي بين تقنية التبليغ وآلية التلقي، أطروحة دكتوراه، عيسى حوريه، الجمهورية الجزائرية، السنة السابعة، ٢٠١٥ -٢٠١٦.

متعددة بتعدد التخصصات وزوايا الرؤيا، إذ هو المصطلح الذي نشعر بابتعادنا عن كنهه كلما حاولنا الاقتراب منه وتعريفه، لذلك يقول ميشال فوكو: ((بدلاً من اختزال المعنى المتذبذب للفظ (Discourse) أظن أنّي أضفت لمعانيه معاملته أحياناً باعتباره النطاق العام لكل الجمل، أحياناً باعتباره مجموعة متفردة من الجمل، وفي أحيان أخرى باعتباره عملية منضبطة تفسر عدداً من الجمل))[١٢٣].

وقد أولت اللسانيات موضوع (الخطاب) تحديداً وتحليلاً حلّ عنايتها، لأنّه المظهر الذي تتجه إليه مباشرة إجراءات التحليل، لذلك فقد غذّى درس اللسانيات الحديث حقول العارف الإنسانية عامة، واستأثرت العلوم الإنسانية كالأدب والأنثربولوجيا والتاريخ وعلم الاجتماع بحصة لا بأس بها من تلك الفروض اللسانية، وأصبح النموذج اللساني معياراً قياسياً لدى كثير من العاملين في حقل العلوم الإنسانية[١٢٤].

وقد أثار مصطلح الخطاب في الألسنية كثيراً من اللبس فهو يحتل مكانة خارج الثنائيات المعروفة في الألسنية مثل ثنائية اللغة والكلام، والنظام والعملية والكفاءة والقدرة[١٢٥]، وهكذا فإنّ علم الخطاب يهتم اليوم بدراسة أنواع النصوص الخطابية كافة المنطوقة منها والمكتوبة والأدبية منها وغير الأدبية، أضف إلى ذلك أنّه علم يدرس هذه النصوص المختلفة في زمان معين ومكان معين وعلى لسان متكلم أو كاتب معين، يخاطب مستمعاً معيناً بطريقة معينة، وفي ظروف اجتماعية معينة، أي أنّ هذا العلم يدرس كل ما يتعلق بإثنوغرافيا التواصل اللساني[١٢٦].

(١٢٣) الخطاب، سارة ميلز، ترجمة: عبدالوهاب علوب/ ١٨.

(١٢٤) الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، د. عبد الله إبراهيم/ ١٤١.

(١٢٥) مفهوم الخطاب عند ميشيل فوكو، د. الزواوي بفورة/ ٩٠.

(١٢٦) الاتجاهات اللسانية ودورها في الدراسات الأسلوبية، د. مازن الدعر، مجلة عالم الفكر، م ٢، العدد ٣ - ٤، لسنة ١٩٩٤/ ١٧١.

ومصطلح (خطاب) كأي مصطلح غيره يمكن تعريفه بضره وبما ليس فيه؛ وبالتالي فهو بيتعرف في الغالب باختلافه عن سلسلة من المصطلحات من قبيل نص وجملة وعقيدة، فكل من هذه المصطلحات المقابلة تحدد معنى (خطاب) فيقول مايكل شورت مثلاً: ((الخطاب تواصل لغوي ينظر إليه باعتباره عملية تجري بين متكلم ومستمع، أو تفاعل شخي قد تحدد مشكلة غرضه الاجتماعي، والنص سواء شفاهي أو مكتوب، ينظر إليه باعتباره رسالة مشفرة في أداتها السمعية أو البصرية))[١٢٧].

وقد ذهب مانغونو إلى أنّ مصطلح (خطاب) يدخل في سلسلة من التقابلات، حيث يكتسب قيماً دلالية أكثر دقة خاصة: جملة، ملفوظ، لغة، وعليه فإنّ ((مصطلح خطاب من حيث معناه العام المتداول في تحليل الخطابات، يحيل على نوع من التناول للغة، أكثر مما يحيل على حقل بحثي محدد، فاللغة في الخطاب لا تعد بنية اعتباطية، بل نشاط لأفراد مندرجين في سياقات معينة))[١٢٨].

وقد يحدد الخطاب بأنّه ((اللغة التي يسيطر عليها المتكلم في حالة استعمال ليكون بذلك مرادفاً للكلام، وهو أيضاً وحدة تساوي أو تفوق الجملة، مكوّن من متتالية تشكل رسالة ذات بداية ونهاية، وتشتغل اللغة فيه وسيلة تواصل))[١٢٩].

وقد ذهب الدكتور سعيد يقطين إلى شبه إجماع المتحدثين في الخطاب وتحليله على ريادة ز. هاريس في ميدان الخطاب، وفي ذلك يقول: ((يكاد يجمع كل المتحدثين عن الخطاب وتحليل الخطاب على ريادة ز. هاريس (١٩٥٢) في هذا المضمار من خلال بحثه المعنون بـ (تحليل الخطاب) أنّه أول لباسني حاول توسيع حدود موضوع البحث اللساني بجعله

(١٢٧) الخطاب، سارة ميلز، ترجمة: عبد الوهاب علوي/ ١٦.

(١٢٨) المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينك مانغونو، ترجمة: محمد يحيائي/ ٣٨.

(١٢٩) تحليل الخطاب الشعري في ضوء اللسانيات النصية، رسالة ماجستير، أحمد مداي/ ٢١.

يتحدى الجملة إلى الخطاب))[١٣٠].

غير أنّ هذا الزعم لا يكاد يسلم لمدعيه، ذلك بأنّ الدكتور الزواوي بغورة قد أثبت أنّ أول من طرح مسألة الخطاب في الدراسات الألسنية هو بيوسونس وليس هاريس، وذلك بقوله: ((وإنما نجد أول من طرح مسألة الخطاب في الدراسات الألسنية هو (بيسونس) (Buyss ens) سنة (١٩٤٣) والذي رأى أنّ الخطاب يمكن أن يكون موضوع نظرية ألسنية، ومن هنا ضرورة تأسيس ألسنية خطابية))[١٣١].

وقد عرّف ز. هاريس الخطاب بأنّه: ((ملفوظ طويل أو هو متتالية من الجمل تكون مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر، بواسطة المنهجية التوزيعية وبشكل يجعلها تظل في مجال لساني محض))[١٣٢].

غير أنّ النقلة الألسنية الكبيرة لمسائل الخطاب نجدها عند بنغت الذي حاول تجاوز الإطار الشكلي لألسنية البنيوية، وذلك بطرحه لمسائل الوظيفة، ودور الفاعل المتكلم في العملية المنطوقية، وخلص إلى القول إلى أنّ الكلمة تشكل فصلاً في ميدان اللغة، وهما: النظام الشكلي القائم على العلاقة، والوحدة، والنظام التواصلي أو الخطابي القائم بين الوحدة والخطاب، وهما معاً يشكلان نظام الدلالة في اللغة[١٣٣].

وعليه فقد عرّف بنغنت الخطاب بأنّه: ((كل تلفظ يفترض متكلماً ومستمعاً، وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما))[١٣٤].

ويذهب تودوروف إلى أنّ الخطاب هو بالضرورة فعل الكلام[١٣٥]، وعليه فهو يعرف لخطاب بأنّه ((مجموع

(١٣٠) تحليل الخطاب الروائي، د. سعيد يقطين/ ١٧.
(١٣١) مفهوم الخطاب عند ميشيل فوكو، د. الزواوي بغورة/ ٩٠.
(١٣٢) تحليل الخطاب الروائي، د. سعيد يقطين/ ١٧.
(١٣٣) مفهوم الخطاب عند ميشيل فوكو، د. الزواوي بغورة/ ٩٠.
(١٣٤) الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، د. عبدالله إبراهيم/ ١٤١.
(١٣٥) مقالات في الأسلوبية، منذر عياشي/ ٢١٨.

البنيات اللفظية التي تعمل في كل عمل أدبي))[١٣٦]. ويعرفه جان كارون بأنّه: ((متتالية منسجمة من الملفوظات))[١٣٧]. وقد ذهب ليفي ستراوس إلى وجود مستوى ثالث بين مستوى اللغة والكلمة وهو مستوى الخطاب وهو ((بنية لسانية تتكون من وحدات هي الجمل))[١٣٨]. ولعلنا نجد التوجه ذاته عند بارت في دراسته عن التحليل البنيوي للنص، إذ يرى أنّ الخطاب يشكل مستوى أعلى من الجملة، فهو حدث لغوي، له وحداته وقواعده ن ولسانيات خاصة به[١٣٩].

وربما ليس من الضروري أن يكون الخطاب متوالية من الجمل كما أكد ذلك سيس وديا كيت اللذان ذهبا إلى أنّ الخطاب هو ((كل لفظ –كلمة أو أكثر – يُنتقى بالنظر إلى شروط إنتاجه))[١٤٠].

ولعل المفكر الروسي ميخائيل باختين قد نحا بالخطاب وتحديد مدلوله منحى آخر، ونظر إليه من منظور آخر غير الذي سبقن فهو يعيد مسألة خطاب الآخر، فنراه يراهن على المنهج الاجتماعي اللسانيات ويفسره تفسيراً (سوسيولوجياً/ اجتماعياً) فيعرف الخطاب على أنّه ((خطاب في الخطاب، وتلفظ في التلفظ، لكنه في الوقت ذاته خطاب عن الخطاب وتلفظ عن التلفظ))[١٤١].

أي أنّ دراسة الخطاب عند باختين تعني دراسة عمليات التلفظ اللغوي في سياقاتها الاجتماعية، مما يعني أنّ السياق الاجتماعي جزء لا ينفصل عن أي فعل لغوي[١٤٢].

وأختتم حديثي في الخطاب ودلالة اصطلاحه ومفهومه بالوقوف مع أحد

(١٣٦) الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، د. عبد الله إبراهيم/ ١٤٠.
(١٣٧) تحليل الخطاب الروائي، د. سعيد يقطين/ ٢٤.
(١٣٨) مفهوم الخطاب عند ميشيل فوكو، د. الزواوي بغورة/ ٩١.
(١٣٩) المصدر نفسه.
(١٤٠) الحد بين النص والخطاب، ربيعة العربي، مج علامات، العدد ٣٣/ ٣٩.
(١٤١) جمالية الخطاب في النص القرآني، د. لطفي فكري/ ٨٠.
(١٤٢) المصدر نفسه.

أكثر مما يشار إليهم من المفكرين في مناقشة مصطلح الخطاب وأسس تشكيله ومنطلقات تكوينه وتحديده، الذي أوجد أبعاداً جديدة لمفهوم الخطاب لم تعرفها محاولات تحديده السابقة عليه في الفلسفة الغربية بما جعل مساهمته أكثر تأثيراً في نظرية الخطاب من غيرها، إلا وهو المفكر الفرنسي ميشال فوكو الذي تحدد مفهوم الخطاب عنده بظهور مؤلفاته التي عكست رؤيتها العميقة والمحدودة لمفهوم الخطاب، إذ اتخذ اخلطاب عنده أبعاداً (ابستمولوجية/ معرفية مستقلة) ارتبطت بوصفه مفهوماً وثيق الصلة بالإنسان وبمؤسساته داخل المجتمع، فهو يعرّف الخطاب بأنّه: ((... الميدان العام لمجموع المنطوقات، وأحياناً أخرى مجموعة متميزة من المنطوقات، وأحياناً ثالثة ممارسة لها قواعدها تدل دلالة وصف على عدد معين من المنطوقات (العبارات) وتشير إليها))[١٤٣].

ويعرفه في موضع آخر بقوله: ((مجموعة من المنطوقات بوصفها تنتمي إلى ذات التشكيلة الخطابية، فهو ليس وحدة بلاغية أو صورية قابلة لأن تتكرر إلى ما لا نهاية، يمكن الوقوف على ظهورها واستعمالها خلال التاريخ... بل هو عبارة عن عدد محصور من المنطوقات التي تستطيع تحديد شروط وجودها))[١٤٤].

فالمنطوقات هي الوحدة الأولية للخطاب، أو هي ذرة الخطاب القابلة للاستقلال وإقامة علاقات مع عناصر أخرى مشابهة لها. فمصطلح الخطاب إذن متعدد المعاني، فهو وحدة تواصلية تبليغية ناتجة عن مخاطب معين موجهة إلى مخاطب معين في سياق معين، يُدرس ضمن ما سمي بلسانيات الخطاب، وهو تواصل لساني ينظر إليه بوصفه إجراء بين المتكلم والمخاطب، أي فاعلية تواصلية يتحدد شكلها بوساطة غاية اجتماعية، ويتنوع الخطاب بتنوع الطرق التي يتخذها المتكلمون أو الكتاب، حسب مواقف اجتماعية وثقافية محددة، فتنتج بذلك أنواعاً كثيرة من الخطاب، مثل الخطاب

(١٤٣) حفريات المعرفة، ميشال فوكو، ترجمة: سالم يقوت/ ٧٦.

(١٤٤) المصدر نفسه/ ١١١.

الديني والخطاب العلمي والخطاب السياسي وغيرها[١٤٥].

ولقد اتخذ تودوروف من الشفافية مقياساً لتحديد الخطاب الأدبي، فهو عنده خطاب انقطعت الشفافية عنه، معتبراً أنّ الحدث اللساني العادي هو خطاب شفاف، نرى من خلاله معناه، ولا نكاد نراه، هو في ذاته فهو منفذٌ بلوري لا يقوم حاجزاً أمام أشعة البصر، بينما يتميز منه الخطاب الأدبي يكونه ثخيناً غير شفاف يستوقفك هو نفسه قبل أن يمكنك من عبوره واختراقه، فهو حاجزٌ بلوري طلبي صُوراً ونقوشاً وألواناً فصدّ أشعة البصر أن تتجاوز[١٤٦].

وهو بهذا التحديد يفرق بين نوعين من الخطاب:

١. الخطاب الشفاف: وهو الذي يتضح معناه من الوهلة الولى.

٢. الخطاب الأدبي: وهو الخطاب العميق الذي لا يمكن التوصل إلى مغزاه بسهولة إلا بفعل القراءة والتأويل، وه والخطاب الذي يتضمن وظيفة الشعرية في أجلّ صورها.

بعد هذا التقديم لدلالة الخطاب عند الغربيين، وعرضنا لجانب من أقوال العلماء والباحثين في الخطاب وتحليله، والوقوف على تعريفاتهم المتعددة المتشابهة أحياناً والمختلفة أحياناً أخرى من حيث المنطلقات والأسس التي يعتمدون عليها في تعريفاتهم، يمكننا القول إنّ الغربيين قد انقسموا على فريقين:

الأول منهما تأثر بالبنيوية، إذ عمد أصحاب هذا الاتجاه إلى حصر الخطاب في الجمل وسموه نصاً، وهو تتابع مترابط من الجمل أو ((مجموعة من القضايا أو المركبات العضوية تترابط على أساس محوري موضوعي من خلال قضايا منطقية ودلالية، وطبّق بعضهم مفهوم في الجملة، فنرى أنّ الجملة تمثل خطاباً وهي لا تكون خطاباً دون مقام توجه فيه[١٤٧].

(١٤٥) المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، د. نعمان بوقرة/ ١٥.

(١٤٦) الأسلوبية والأسلوب، د. عبد السلام المعري/ ١١٦.

(١٤٧) ينظر: علم لغة النص، د. سعيد بحيري/ ٧٩.

والفريق الآخر تأثر بعلم اللسان الاجتماعي، إذ قال ديبوجراند: ((كل وحدة كلامية تخدم غرضاً اتصالياً... وقال: مجموعة من النصوص ذات العلاقة المشتركة))[١٤٨].

وقال شميث: ((جزء محدد موضوعاً محورياً من خلال حدث اتصالي ذي وظيفة إنجازية، وقال هاليداي: ((كل متتالية من الجمل يكون بينها علاقات، أو بين عناصر هذه الجمل علاقات، وقد ميّز بين دلالة اللفظ ودلالة المقام، فجعل الدلالة نوعين هما: دلالة اللفظ، ودلالة الظرف الخارجي))[١٤٩].

إنّ مفهوم الخطاب إذن يتعدد حسب تعدد التيارات والمدارس والمجالات التي يستخدم فيها، لكن رغم ذلك نجد جل الباحثين يتفقون على أنّ الخطاب وحدة لغوية تتجاوز الملفوظ أو الجملة، وهذا ما يسمى عندهم (Trans phras tique)، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ وضع الخطاب بالنسبة إلى النص والمحادثة لا يزال في نقاش وجدل[١٥٠].

ومن هذا المنظور فإن صعوبة تحديد مفهوم موحّد للخطاب لا تكمن في كونه وحدة تتجاوز الجملة؛ لأنّ هذه النقطة يكاد يتفق علها الباحثون، ومن أولئك على سبيل المثال لا الحصر عبدالهادي بن ظافر الشهري الذي يقول في ذلك: ((أما الخطاب بوصفه ما يتجاوز الجملة فهو المفهوم الغالب في الدراسات اللغوية الحديثة))[١٥١].

أما بالنسبة للتباين والاختلاف في وضع تعريف دقيق للخطاب فيرجع إلى زاوية اهتمام محللي الخطاب، فإذا كان محلل الخطاب يهتم بالتلفظ فيضفي

(١٤٨) ينظر: النص والخطاب والأجزاء، ديبوجراند، ترجمة: د. تمام حسان/ ٩٤-٩٦.

(١٤٩) تحليل النص -دراسة الروابط النصية في ضوء علم اللغة النصي، د. محمود عكاشة/ ١٤.

(١٥٠) إشكالية المصطلح في المؤلفات العربية - تحليل الخطاب نموذجاً، رسالة ماجستير، رشيد عزت، معهد اللغات الأوربي العربي/ ٤٠.

(١٥١) استراتيجيات الخطاب -مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ط ١، دار الكتاب الجديد، لبنان ٢٠٠٤/ ٣٧.

على الخطاب النزعة اللفظية، وأما إذا كان مهتماً بتحليل المحادثة فيضفي عليه الخاصية التفاعلية... إلخ[١٥٢].

وهذا ما أشارت إليه ديبو أشيفرين بتعريفاتها الثلاثة التي تمثل بمجموعها هذا التعدد والتباين في تحديد مفهوم الخطاب الناتج عن تعدد مناهج الدراسات اللغوية بقولها: ((بوصفه أكبر من الجملة، أو بوصفه استعمال أية وحدة لغوية، أو بوصفه الملفوظ))[١٥٣].

إنّ الهدف من دراسة الخطاب تبيان الكيفية التي من خلالها تتم عملية صيافغة الخطاب بأنواعه المختلفة كافة، ثم تبيان الكيفية التي من خلالها يتم تأثير النشاطات الذهنية الداخلية على السلوك اللغوي وغير اللغوي. وعليه فإنّ الحقيقة التي توصل إليها اللساني الاجتماعي (آلتون بيكر) هي صحيحة عندما حاول أن يؤسس بُعداً اتصالياً جديداً يقوم على الفهم الجمالي في عملية الاتصال البشري[١٥٤].

وتأكيداً على المعنى السابق يقول فوكو: ((إنّ للكل مجتمع وسائله في ضبط أنواع الخطاب فيه، واختيار بعضها وتنظيمه وإعادة توزيعه، وإنّ الهدف من هذا الضبط هو تفادي الأخطار والقوى))[١٥٥].

وعليه يقرر فوكو أنّ الخطاب شبكة معقدة من النظم الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تبرز فيها الكيفية التي ينتج فيها الكلام كخطاب[١٥٦].

فالخطاب إذن هو ((مجموعة من النصوص ذات العلاقات المشتركة، أي أنّه تتابع مترابط من صور الاستعمال النصي يمكن الرجوع إليه في وقت

(١٥٢) إشكالية المصطلح في المؤلفات العربية – تحليل الخطاب نموذجاً/ ٤١.
(١٥٣) استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي الشهري/ ٣٧.
(١٥٤) الاتجاهات اللسانية ودورها في الدراسات الأسلوبية، د. مازن الوعر، مجلة عالم الفكر، م ٢٢، العدد ٣ – ٤، يونيو ١٩٩٤/ ١٧١.
(١٥٥) حفريات المعرفة، ميشال فوكو/ ٥٢، نقلاً عن تحليل الخطاب في ضوء لسانيات النص، وسن يحيى ناعوس/ ٢٣.
(١٥٦) نحو النص ومبادئه واتجاهاته الأساسية في ضوء النظرية اللسانية الحديثة، د. نعمان بو قرة، حج علامات، العدد ٦/ ٤٣.

لاحق))[١٥٧].

يفهم من هذا الكلام أنّ مفهوم الخطاب أوسع من مفهوم النص، وبعبارة أخرى فإنّ النص جزء من الخطاب.

النص والخطاب:

من خلال ما قدمنا في تعريف كل من النص والخطاب فإنّه يظهر تداخلهما في أحيان كثيرة، وقد يستعملان مترادفين، وفي ذلك يقول الدكتور أحمد المتوكل: ((إنّ مفهوم الخطاب لم يحظَ لحد الآن- فيما نعلم -على كثيرة استعماله بتعريف شافٍ قارّ، وينعكس هذا الوضع في الاستعمال المضطرب لمصطلحين يكادان يستخدمان كمرادفين يتعاقبان، وهما مصطلحا: النص والخطاب))[١٥٨].

غير أنّ المتوكل يشير إلى أنّ الاتجاه الغالب الآن هو اختيار مصطلح (الخطاب) وتفضيله على منافسه، إذ يقول في ذلك: ((يستعمل هذان المصطلحان على التعاقب، إلا أنّ الاتجاه الغالب الآن هو اختيار مصطلح (الخطاب) يوحي أكثر من مصطلح (النص) بأنّ المقصود ليس مجرد سلسلة لفظية تحكمها قوانين الأنساق الداخلي، بل كل إنتاج لغوي يربط فيه ربط تبعية بين بنيته الداخلية وظروفه المقامية بالمعنى الواسع))[١٥٩].

وقد أشار غريماس إلى هذا التداخل أيضاً الذي يصل إلى حدّ الاندماج، وأنّ المصطلحين -النص والخطاب-قد يستعملان مترادفين، غير أنّه فرّق بينهما من حيث الارتباط المعروف بين النص بالكتابي، والخطاب الشفوي[١٦٠].

ويرى سعيد يقطين أنّ العلاقة قائمة بين النص والخطاب، وأنّها متعددة الأوجه، انطلاقاً من الرأي الذي يرى أنّهما -النص والخطاب -واحداً، أي هما وجهان لعملة واحدة، تسمى النص كما تسمى الخطاب، وهناك من يرى أنّ النص أعم من الخطاب، وهو أقرب إلى

(١٥٧) الأسلوبية في النقد الحديث، فرحان بدري الحربي/ ٤١، عن إشكالية المصطلح في المؤلفات العربية.

(١٥٨) قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، د. أحمد المتوكل/ ١٦.

(١٥٩) المصدر نفسه.

(١٦٠) ينظر: نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، د. حسين فري/ ٥٩ -٦٠.

المنطق، وهناك من يرى عكس ذلك.

وربما نجد هذا التداخل والارتباط في تحديد الموقف الواضح عند الناقد الواحد نفسه، فتارة نجده يعد النص أعم من الخطاب، وتارة أخرى نجده يقول العكس من ذلك، وثالثة يسوي النص. وهذا ما نراه عند الدكتور محمود عكاشة في كتابه تحليل الخطاب، إذ يقول: ((ويتبين من هذا أنّ النص أعم من الخطاب، فكل خطاب نص، وليس العكس، فلا يسمى الكلام خطاباً إلا تواصلاً وتوجيهاً))[١٦١].

وبعد عشر من الصفحات يعكس القول ويجعل الخطاب أعم من النص بقوله: ((ويتبين من هذا أنّ الخطاب أعم من النص وأوسع، وإن كان المراد بالخطاب اللفظ نفسه فهو النص))[١٦٢].

ونجد أنّ محمد عابد الجابري يسوي بين الخطاب والنص ويجعل منهما مفهوماً واحداً[١٦٣].

وكذلك نجد محمد خطابي أيضاً لم يفرق بينهما، إذ نجده كلما ذكر مصطلح (خطاب) وضع مصطلح (نص) أمامه، من ذلك مثلاً قوله: ((كل ذلك من أجل البرهنة على أنّ النص/ الخطاب يشكل كلاً متآخذاً))[١٦٤].

ويشيع هذا الاعتقاد في التجربة النقدية العربية مع محمد مفتاح وعبد الملك مرتاض، فهما يسويان بين النص والخطاب، ويطلقان اسم الأول على الثاني والعكس))[١٦٥].

وقد عمد بعض الدارسين العرب إلى التفريق بين النص والخطاب في ضوء الدراسات اللسانية الغربية، من إبرزهم عبدالله الغذامي حين يربط الخطاب بالملفوظ، والنص بالمكتوب، فالقول عنده يتحول من عمل ملفوظ إلى عمل مكتوب بمجرد عزل الرسالة عن مرسلها، فهو خطاب ما دام ملفوظاً، وهو نص مت

(١٦١) تحليل النص في ضوء نظرية أحداث اللغة، د. محمود عكاشة/ ١٨.
(١٦٢) المصدر نفسه/ ٢٨.
(١٦٣) نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، د. حسين خمري/ ٦٠.
(١٦٤) لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطاوي/ ٥.
(١٦٥) تحليل الخطاب الشعري في منظور اللسانيات النصية، أحمد مداس/ ٢٢.

سود بياض الصفحات[١٦٦].

ويفترض الدكتور نعمان بوقرة سامعاً يتلقى الخطاب ويتطلب وجوده، وهو نشاط تواصلي يتأسس على اللغة المنطوقة، فتنتجه اللغة الشفوية. أما النص فيتوجه إلى متلق غائب يتلقاه عن طريق القراءة، وهو مدته مكتوبة تنتجه الكتابة، فله ديمومة الكتابة ليقرأ في كل زمان ومكان، على الرغم من عدم قناعته بدقة هذا المائز بينهما، إذ يقول في ذلك: ((نستنتج مما سبق أنّ الخطاب يتصل بالجانب المنطوق بينما النص يتصل بالجانب الخطي (المكتوب)، كما يتجلى لنا على الورق، وربما أمكننا التسليم بهذا التمييز مؤقتاً بالرغم من عدم دقته))[١٦٧].

وقد فرّق الدكتور أحمد مداس بينهما في حال تدوين الرسالة اللغوية بقوله: ((ويظهر لي أنّ حديث النص والخطاب يمر بمرحلتين:

أولاهما: يكون فيها الخطاب شاملاً للنص، وفيها لا يتعدى الفهم طرفي التخاطب، وتكون فيها ظروف إنتاج الخطاب وتبادله معينة معلومة.

والثانية: يتحول فيها الوضع بعد التدوين، فيكون النص هو مرآة الخطاب، وحينئذ يصير القارئ خارج طرفي التخاطب طرفاً جديداً في عملية تواصل جديدة بينه وبين محمول النص))[١٦٨].

وكذلك فرقت الدكتور خلود العموش بينهما بعد سرد جملة من التعريفات والخصائص لكل منهما، وخلصت إلى القول: ((وليس كل خطاب نصاً وإن كان كل نص بالضرورة خطاباً، فالكلام المتصل خطاب، وكلنه لا يكون نصاً إلا إذا اكتمل ببداية ونهاية وعبّر عن موضوعه ببناء متماسك منسجم))[١٦٩].

(١٦٦) ينظر: الخطيئة والتكفير، د. عبدالله الغذامي/ ٦٠ -٦٣. مفهوم النص في العربية بين القديم والحديث، د. محمود حسن الجاسم، مجلة جذور التراث، العدد ٣١/ ٥٧.

(١٦٧) نحو النص -مبادئه واتجاهاته الأساسية في ضوء النظرية اللسانية الحديثة، د. نعمان بوقرة، مجلة علامات، م ١٦، العدد ٦١/ ١٧.

(١٦٨) تحليل الخطاب الشعري في منظور اللسانيات النصية، أحمد مداس/ ٢٥.

(١٦٩) الخطاب القرآني -دراسة في العلاقة بين النص والسياق، د. خلود العموش/ ٢٢.

غير أنّني لا أوافق الدكتورة العموش في مذهبها، ذلك بأنّ الخطاب ما هو إلا نص وظروف إنتاجه، والنص بذلك يكون جزءاً من الخطاب ولا عكس، أي أنّ كل خطاب نص ولا عكس إلا بإضافة ظروف إنتاج ذلك النص، وعليه يكون كل خطاب هو نص وليس كل نص خطاباً، كما ذهب إلى ذلك الدكتور محمود عكاشة من قبل بقوله: ((فكل خطاب نص، وليس العكس))[١٧٠].

ويتمثل أيضاً في مقولة عينان: ((إنّ النظر في النص من حيث بيئته تجعل منه ملفوظاً، أما الدراسة اللسانية بشروط إنتاج هذا النص، فنجعل منه خطاباً))[١٧١].

نستخلص مما تقدم أنّ مفهومي النص والخطاب أثارا جدلاً واسعاً في علوم اللغة، فغدا التمييز بينهما في ضوء المناهج النقدية الحديثة يطرح إشكالاً كبيراً، نظراً لتعدد الآراء واختلافها وتضاربها أحياناً، وكثرة التصورات وتداخلها، مما يجعل البحث أمام صعوبة تأطيرها وفرزها، وبالتالي تحليلها ومناقشتها، غير ((أنّ ما يميّز بينهما ليس هو الترعيف الذي يمكن أن يقدم لهما، وإنما مجال استخدامهما أنّ النص يستخدم بالأساس في مجال الأدب، بينما يستخدم مفهوم الخطاب في مجال اللسانيات))[١٧٢].

الخطاب القرآني:

الخطاب إنجاز لغوي، والتراث الإنساني والعربي يقدم نوعين من أنواع الخطاب تتوزعهما نماذج عديدة:

الأول منهما الخطاب الإيصالي.

والنوع الثاني يمكن أن نسميه: (الخطاب الإبداعي)، أو شعرية الخطاب، ويتميز بأنّه خطاب يقوم على مبدأ الأجناس الأدبية، وفي كلا الحالتين يأخذ الخطاب قيمة الدال، غير أنّ الحضارة العربية منذ البعثة النبوية وضعت بين أيدينا خطاباً ثالثاً من أصل إلهي، وهو

(١٧٠) تحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة، د. محمود عكاشة/ ١٨.

(١٧١) إشكالية المصطلح في المؤلفات العربية- تحليل الخطاب نموذجاً، رشيد عزت/ ٤٥.

(١٧٢) الحد بين النص والخطاب، ربيعة العربي، مجلة علامات، العدد ٣٣/ ٤٢.

القرآن. ونلاحظ أنّ الدال فيه يقوم على التوحد مع نفسه، ولا يقبل التعدد في نماذج من أي نوع، وما كان ذلك إلا لأنّه خطاب يقوم على غير مألوف العادة، ومن ثم لا ينضوي تحت أي من الخطابين السابقين، وهو أيضاً لأنّه متحرر من غيره، غير قابل للمحاكاة والتقليد، وعليه فإنّه ليس كمثله شيء، ولذا يمكن أن نقول عنه: إنّه نموذج نفسه، وهذه هي فرادته(١٧٣).

فخطاب القرآن عالمي ورسالته خاتمة، وله خاصية عدم التقيد بزمان أو مكان معين، بل إنّه يشمل الزمان كله والمكان كله، فهو يصلح لكل زمان ومكان وإنسان، وإذا كانت الخطابات العربية قد تعددت أنواعها -كما تقدم -واختلفت أجناسها باختلاف مرجعياتها فلا شك أنّ الخطاب القرآني بوصفه نموذجاً لفظياً متعالياً يأتي على رأس هذه الخطابات، بل ومن أشدها تميزاً على الإطلاق، وذلك لما يحمله من خصائص نوعية تضمن له الفرادة والتميز، فهو خطاب إلهي مطلق لا نهائي في (دوالـه/ ألفاظه) و (مدلولاته/ معانيه)، فهو من أكثر أنواع الخطاب إقناعاً وتفعيلاً للحديث وتأثيراً في المتلقي.

لذلك نجده هو يحكي عن نفسه ويبين أثره في متلقيه وتأثيره في سامعيه حتى ولو كان جبلاً أصماً لرأيته خاشعاً متصدعاً من ذكر الله وخشيته بقوله تعالى: ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ ... ﴾ [سورة الحشر: ٢١]. لذلك فإنّ الخطاب القرآني خطاب إلهي معجز، ومن ثم يمتلك من الأدوات ما يجعله مؤهلاً -وبشكل دائم-لأن يكون من أهم الوسائل التعبيرية التواصلية القادرة على استيعاب الأنساق الحضارية، إنّه رسالة ربانية لكل الناس دون تحيز أو طائفية أو جغرافية معينة، فهو خطاب هداية وخير، ينعم بها كل بني البشر(١٧٤).

وعليه فالخطاب القرآني رسالة إبلاغية ربانية عالمية لكل الناس أنزله الله تعالى على نبيه ﷺ ليكون للعالمين نذيراً، وفي

(١٧٣) ينظر: مقالات في الأسلوبية، د. منذر عياشي/ ٢١٥-٢١٦.

(١٧٤) جمالية الخطاب في النص القرآني، د. لطفي فكري/ ٩٣.

ذلك قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [سورة الفرقان: ١].

وفي هذا الشأن يقول الشيخ الغزالي: ((فخطاب القرآن عالمي ورسالته خاتمة، وله بعد في الزمان الماضي والحاضر والمستقبل، وله بعد في المكان بحيث يشتمل العالم كله))[١٧٥].

وهذا ما أخبرت به الآيات البينات كقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٨]. وغيرها من الآيات الدالة على عالمية الرسالة الخاتمة ورسولها الخاتم ﷺ.

الخطاب القرآني خطاب تنتظمه وحدة بنيوية خاصة، فهو نظام فكري ونظام لغوي يمتاز بـ (الاتساق/ الترابط الشكلي)، و (الانسجام/ الترابط المعنوي) فلا يدانيه أي خطاب آخر في نظم دواله، ودقة مدلولاته، وتأليف وتناسق عباراته، لذلك فهو نص فريد في الحضارة العربية الإسلامية، وبه تميزت عن غيرها، ولعل هذا هو سبب تسميتها بـ (حضارة النص)، ولا شك في أنّ هذه الفرادة قد جاءت مرتهنة بصياغة لم يرق إليها أي نص آخر[١٧٦].

ولا أدلّ على فرادته وتفرده بلفظه ومعناه من تحديه أرباب اللغة وبلغاءها من أن يأتوا بعشر سور مفتريات على حد زعمهم، ثم تنزل معهم في التحدي إلى أقلّ مستوى، فتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة ليس غير، فما استطاعوا أن يظهروه أو يظاهروه، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، فقال تعالى: ﴿ ... فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ... ﴾ [سورة هود: ١٣] ﴿ ...فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ ٱلْخَلْقَ .. ﴾ [سورة يونس: ٣٨] ﴿ ... فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ .. ﴾ [سورة البقرة: ٢٣].

ثم أطلق صرخته المدوية في أعنان السماء وآفاق الأرض معلناً بعجز الإنس والجن مجتمعين على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فلن يفلحوا إذاً أبداً، قال تعالى:

(١٧٥) كيف نتعامل مع القرآن، محمد الغزالي/ ٢١٦.

(١٧٦) جمالية الخطاب في النص القرآني، د. لطفي فكري/ ٩٥.

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[سورة الإسراء: ٨٨]. فجيء النص القرآني – بحكم طبيعته اللغوية –على سنن العرب هو دليل صدق للنبي المرسل ﷺ ، كما قال القاضي عبد الجبار: إنّ الله تعالى أراد أن يكون القرآن في أعلى طبقات الفصاحة ليكون علماً دالاً على صدق النبي ﷺ بالحقائق المجردة، وأنّه لابد من سلوك طريق التجوز والاستعارة، فتسلك تلك الطريقة ليكون أشبه بطريقة العرب وأدخل في الإعجاز)) (١٧٧).

من هنا فإنّ الخطاب القرآني خطاب لا ينطق إلا بلفظه، ولا يقرأ إلا بلفظ داله وإن اختلف في لغة المدلول، لذلك تعذر ترجمة الخطاب القرآني بلفظه ومعناه، وإنما تشرح مدلولاته بصنوف اللغات، وتقابل معانيه بشتى الألسن، لذلك فإنّ الترجمة تفقده رونقه وتناسقه وانسجامه، ولم يستطع أحد تسميته إلا كما سماه خالقه ومبدعه وهو الله جل جلاله، إذ قال تعالى شأنه في سمته بأنّه (الكتاب)، فقال تعالى: ﴿ ... كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[سورة هود: ١].

لذلك كان هذا الخطاب الإلهي الذي سماه مبدعه بـ (الكتاب) متفرداً عن غيره من أنواع الخطاب وفي المستويات كلها الصوتية والمعجمية والتركيبة والإيقاعية والتداولية وغيرها، ولعلّ أهم ما يميز الخطاب القرآني هو مرجعيته المنطلق منها والعائد إليها، لذلك نجد الدكتور منذر عياشي يعبر عنه بأنّه خطاب لا نهائي الدال والمدلول أو التركيب فيصفه بأنّه دال ومدلول في الوقت ذاته، إذ يقول في ذلك: ((هناك أخيراً مرجعية النص نفسه على نفسه، ويكون النص فيها دالاً ومدلولاً خالقاً لزمنه الخاص ودائراً مع زمن المتلقين في كل العصور، وسمة القراءة في ذلك أنّ كل وحدة من هذه المرجعيات تستقل بذاتها وتطلب الأخرى في الوقت ذاته)) (١٧٨).

(١٧٧) شرح الأصول الخمسة، القاضي عبد الجبار، تح: د. عبدالكريم عثمان/ ٦٠٠.

(١٧٨) مقالات في الأسلوبية/ منذر عياشي/ ٢٢.

فالخطاب القرآني ليس نصوصاً محدودة أو متناهية على مستوى المعاني وتفرعاتها، وإن كانت نصوصه محدودة ومتناهية على مستوى اللفظ، فالخطاب القرآني يتميز بالاطلاقية التي تجعل الإحاطة به مطلقاً أمراً مستحيلاً في أي زمان ومكان، إلا الذين خصهم الله تعالى بذلك وهم المطهرون الذين جاز لهم مس القرآن وفهمه حق فهمه بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[سورة الواقعة: ٧٧ –٧٩].

ولو رجعنا إلى الاستعانة بالقرآن نفسه لفهم المراد من لفظ (المطهرون) وما هي ميزتهم لوجدنا القرآن يفسر بعضه بعضاً، ويعلمنا أنّ المطهرين هم محمدﷺ وأهل بيته الطاهرين، الذين أذهب الله الرجس عنهم وطهرهم تطهيراً، وذلك بقوله تعالى: ﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[سورة الأحزاب: ٣٣]. ﴿... لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[سورة البقرة: ١٢٤]. ﴿... فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[سورة النحل: ٤٣].

﴿... وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ ...﴾ [سورة آل عمران: ٧]. وغيرها كثير.

لذلك نجد النبيﷺ يصف علياً بأنّه القرآن الناطق، أو وصف أمير المؤمنينعليه السلام نفسه بأنّه القرآن الناطق في حادثة التحكيم في معركة صفين بقوله: ((ذلكم القرآن فاستنطقوه، ولا...))[179].

إذن فالخطاب القرآني يؤسس سياق معناه على وفق نظام معين خاص به، وإذا كانت اللسانيات في العصر الحديث تستعمل مصطلح الخطاب للدلالة على مقطع مكتوب أو شفوي، بغض النظر عن طوله، ليس إلا أنّه يشكل كلاً متماسكاً، فإنّ ((الخطاب في النص القرآني يتميز عن بقية النصوص بفرادة تماسكه وكيفية هذا التماسك، فهو يقدم نص يقدم نفسه بوصفه نصوصاً متداخلة في إطار السورة الواحدة، كما يقدم نفسه

(١٧٩) نهج البلاغة، شرح وإعداد: محمد عبده، الخطبة، ١٥٦: ٣١٧.

بوصفه نصوصاً متداخلة في إطار السور المتعددة))[١٨٠].

وأحسب أنّ النقاد والدارسين المحدثين لا يجدون محذوراً في تسمية القول القرآني بـ (الخطاب)، وإطلاقه على ذلك النسق النظمي المتوائم من جميع الحيثيات، وكما وجدناهم مختلفين في إطلاق تسمية (النص) عليه؛ ذلك بأنّهم وجدوا في المعاسير النصية التي اقترحها ديبوجراند حرجاً في إلصاق صفة النصية على التعبير القرآني؛ لأنّ أحد تلك المعاسير النصية هو (التناص)، وهو مما يخدش قدسية الخطاب الإلهي المقدس، وقد تقدم الكلام في ذلك.

لذلك نجد مصطلح أكثر استعمالاً عندهم في وصف القرآني الكريم، وفي ذلك يقول الدكتور محمود عكاشة: ((الخطاب أكثر تفاعلاً وتأثيراً من النص المكتوب المجرد من سياقه الخارجي الذي أنتج فيه، فهو الفعل التفاعلي مع متلقيه، واللفظ التفاعلي الذي تتجلى فيه العناصر اللغوية والاتصالية والسياقية والمقامية، والنص اللفظ الثابت تدويناً أو محفوظاً، وقد اخترت مصطلح (النص) في دراسة الشعر؛ لأنّه في شكله الثابت أقرب إلى مفهوم النص من الخطاب، بيدَ أنّ الأخير يُرجّح في الحديث عن القرآن الكريم؛ لأنّه موجه متجدد الإرسال))[١٨١].

من هذا المنطلق نستطيع القول إنّ الخطاب القرآني هو سلطة روحية ربانية توافرت فيه جميع المقوقات لتحقيق هدف سام، ألا وهو التواصل مع الذات الإلهية المقدسة، والإيمان بالوحدانية المطلقة، والتوحيد الحق لله تعالى شأنه وعز ذكره، وأنّه رسالة تبليغية لا يمكن لها أن تتحيز بمكان محدد، أو زمان مقدر، أو تختص بجيل معدود أو أمة معينة، بل إنّه خطاب مهيأ للتوصيل للناس كافة ملائم للفطرة الإنسانية مستغرق لكل أجناسها، كما تقدم الكلام في التدليل على عالمية الخطاب القرآني، وعمومية الرسالة الخاتمة، وبذلك

(١٨٠) جمالية الخطاب في النص القرآني، د. لطفي فكري/ ١٠٠.

(١٨١) تحليل النص -دراسة الروابط النصية في علم اللغة النصي، د. محمود عكاشة/ ١٥.

((فقد يشكل الخطاب القرآني حضوراً أدبياً وجمالياً وروحياً، وجد قبولاً باذخاً في الوجدان الإسلامي، بما احتوت عليه دواله من خصائص التلاؤم والانسجام والدقة في أداء دلالاته ومقاصده، ما جعله من أهم الوسائل التواصلية الإبلاغية المتفردة سمواً وفصاحة وبلاغة وبياناً))[١٨٢].

إذن نحن أمام خطاب فاعل ومتفاعل، شكلت كلماته كلاً متداخلاً متماسكاً محكم البنية، توافقت دواله مع مدلولاته لفظياً ومعنوياً، مما جعل هذا الخطاب أرقى مستويات التعبير اللغوي الفني العربي على الإطلاق، بل أكثر من ذلك، إذ كان هو الموئل ومرجع اللغويين من نحويين وبلاغيين وغيرهم في الاستشهاد لفصاحة كلمة أو صحة تركيب إذا ما كان قد ورد في الذكر الحكيم، لذلك كان الخطاب القرآني خطاباً أدبياً لا يرقى إليه سواه من أنواع الخطاب، متصفاً بكونه نسيجاً هائلاً متمرداً دائم التطلع، لأن يجعل اللغة تنتقل في جملة (انزياحاتها، تحولاتها) الجديدة إلى مستوى أرفع مما كانت عليه من قبل، إنّه يهدم العادة، لكن هذا الهدم في حقيقته بناء على أحد قول الناقدة (جوليا كرستيفا)[١٨٣].

ولو تتبعنا مسارات الخطاب القرآني في نصوصه المتقاربة أو المتباعدة لوجدنا المبدع يعدل عدولاً قوياً وواضحاً في اللغة، مما يؤدي إلى إدخال (المُبدَع الأول) في مُبدع آخر من أجل خلق بنية نسيجية إبداعية قادرة على الإيصال والتواصل والفهم والإفهام + في إطار عفوي جمالي متأسلب فنياً ليحقق أروع ما توصل إليه علم الخطاب –أو النص –ألا وهو استثمار اللغة بكل طاقاتها لتعبر عن هذا النبع الإبداعي اللامتناهي[١٨٤].

لذلك فإنّ ((عبقرية مبدع النص تتلخص في أنّه يستطيع أن يكشف ما لا يمكن للإنسان العادي كشفه في اللغة

(١٨٢) جمالية الخطاب في النص القرآني، د. لطفي فكري/ ١٠٠.

(١٨٣) ينظر: المصدر نفسه/ ٩٠.

(١٨٤) ينظر: قضايا لسانية –إشكالية التداخل، د. مازن الوعر، مجلة المعرفة، العدد ٣٧٩، لسنة ١٩٩٥/ ١٤١.

ليوظفه في خدمة النص من خلال العدول به إلى أبعد مسافة من مسافات العدول، وهنا يكمن السر في مفهوم الإعجاز القرآني الذي استطاع أن يحقق للغة العربية مفهوم التوالد اللغوي من داخل اللغة، ليوظفه ويستثمره داخل اللغة نفسها، وذلك للتعبير عن الكون المرئي واللامرئي))[185].

الخطاب في القرآن الكريم:

وردت مادة (خ، ط، ب) في القرآن الكريم بلفظ الفعل الموجه للمخاطب بصيغة النهي في موردين في القرآن الكريم، أحدهما في سورة هود/ ٣٧: ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۖ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾. والآخر في قوله تعالى: ﴿ ... وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۖ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾[سورة المؤمنون: ٢٧]. وبلفظ (فاعَل) مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿ ...وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ ... ﴾ [سورة الفرقان: ٦٣]. والمراد بالخطاب والتخاطب هنا التوجه بالكلام أي المراجعة بالكلام[186].

وقد جاءت هذه المادة بصيغة لمصدر بنسقية (خطبٌ، وخطاب)، قال تعالى: ﴿ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ... ﴾[سورة يوسف: ٥١]. وقال تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ [سورة الحجر: ٥٧]، [سورة الذاريات: ٣١]. وقال تعالى أيضاً: ﴿ ...قَالَ مَا خَطۡبُكُمَآ... ﴾ [سورة القصص: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴾[سورة طه: ٩٥].

والخطب في الموارد المتقدمة هو العظيم من الأمور تصريحاً أو تلميحاً كما في قوله تعالى: ﴿ ... فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴾ الغرض منه الإنكار عليه وتعظيم صنعه[187].

وقد ورد بصيغة المصدر الآخر (الخطاب) في موردين معرفة بأداة التعريف (ال)، وفي واحدة مفارقة للتعريف، إذ قال تعالى: ﴿ وَشَدَدۡنَا

(١٨٥) المصدر نفسه/ ١٤٢.

(١٨٦) ينظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ٣٠/ ٥٠.

(١٨٧) التفسير الكبير، الفخر الرازي ٢٢/ ٩٥.

مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [سورة ص: ٢٠]. أي أنّه قد جمع له مقومات السلطة والسيادة، فقد جمع بالحكمة -كما يقول الحافظ -((البراعة في العقل والرجاحة في الحلم والاتساع في العلم والصواب في الحكم، وجمع له فصل الخطاب وتفصيل المجمل وتخليص الملتبس، والبصر في الحز في موضع الحز والحسم في موضع الحسم))(١٨٨).

وقال تعالى في مورد آخر من السورة نفسها: ﴿ ... فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ﴾[سورة ص: ٢٣]. وورد في موضع أخير منكّراً دالاً على العموم والإطلاق، لينفي بذلك كل أنواع الخطاب وأشكاله مع الرحمن بذلك اليوم؛ وذلك بأنّ الله تعالى سيختم على الأفواه، وستتكلم الجوارح لتشهد على أصحابها، وقد صرّح القرآن بذلك، إذ قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة يس: ٦٥]. وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة النور: ٢٤].

ثم ينتقل الخطاب القرآني ليصور لنا مشهداً غاية في الغرابة من المحاجّة بين الجوارح وأصحابها بقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[سورة فصلت: ١٩-٢١].

ومما يثير المتلقي في خطاب آية النبأ: ﴿ ... ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ أنّ مخاطبة الرحمن غير مسموح بها للمتقين؛ فإذا كان المتقون لا يملكون من الرحمن خطاباً فما بال غيرهم وهو أسوأ منهم حالاً؟!. قال تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾[سورة النبأ: ٣١-٣٧].

(١٨٨) البيان والتبيين، أبو عثمان الجاحظ ١/ ٢٠٠.

وهكذا يتضح جلياً أنّ كل كلمة في الخطاب القرآني تمتلك خصوصيتها وبناءها الفني الذي استعصى أن يرادف بشكل آخر وإن كانت ثمة كلمات متقاربة، وربما تؤدي معنى تلك الكلمة في غير النسق القرآني إلا أنّه أبى واستعصى على أرباب اللغة استبداله، وكأنّ الكلمات قد خلقت في سياقاتها النصية، وكأنّ جمال الخالق قد انعكس بجمال مخلوقه، وهو المنطوق اللغوي للخطاب القرآني الذي تشكله تلك الومضات الجمالية المشرقة التي تنفرد بجرسها الصوتي الخاص وتناسقها الإيقاعي المميز، وهو بذلك قد شكلت نصاً لغوياً مثالياً، ذلك النص الذي يكتفي بأدواته من داخل اللغة الإنسانية ليعدل أو يتوسع باللغة داخل اللغة، ويبتعد عن الأدوات التي هي خارج اللغة ((فالنص كلما أفرز شبكات دلالية من داخل اللغة دون الاستعانة التي تأتي دلالاتها من حركات المتكلم ووعي المتلقي والسياق الفيزيائي الزماني والمكاني لعملية الإيصال والتواصل))[189].

ومن هذا المنطلق قد انطلق بعض الباحثين للتدليل على سر الإعجاز القرآني الذي استطاع أن يؤسس (التوالد اللغوي)، إذ يقول الدكتور مازن الوعر في ذلك: ((هنا يكمن السر في مفهوم الإعجاز القرآني، ذلك الإعجاز الذي استطاع من داخل اللغة العربية وشبكاتها الصوتية والنحوية والدلالية والسياقية اللغوية أن تولد اللامتناهي في أدوات متناهية، وبذلك استطاع هذا الإعجاز أن يحقق للغة العربية مفهوم (التولد اللغوي) من داخل اللغة ليوظفه ويستثمره داخل اللغة نفسها، وذلك للتعبير عن الكون المرئي واللامرئي))[190].

لا يكاد يختلف اثنان على أنّ للأسلوب القرآني فرادة وتميزاً من غيره، ورونقاً وجمالاً لن تلمسه في غيره من الكتب السماوية السابقة، أو في نتاج فحولة الأدب والشعر الذين اشتهروا بتملك زمام اللغة والتمكن منها والتصرف في أساليبها؛

(١٨٩) قضايا لسانية -إشكالية التداخل، د.مازن الوعر، مجلة المعرفة، العدد ٣٧٩ لسنة ١٩٩٥/ ١٤٢.

(١٩٠) م. ن.

ذلك بأنّ القرآن الكريم من أوله إلى آخره نجده على نسق ثابت من السمو في جمال اللفظ ودقة الصياغة وروعة التعيين وعمق المعنى، على الرغم من تنقله بين موضوعات مختلفة في الخطاب الواحد أو النص الواحد من قصص وتشريعات ومواعظ وحجاج وغير ذلك، وعليه فقد أقبل الدارسون -من مسلمين وغيرهم- على تدارس ألفاظه والبحث في سبر غور معانيه تدبراً وتفهماً التي لم تبخل يوماً على دارس أو باحث بالإيماء إليه بما يسد حاجته ويستدل به على صدق دعواه وحجية مدعاه.

لذا يكاد يجمع العلماء على أنّه لم ينل كتاب في الدنيا دراسة وبحثاً وتدبراً فيه وحوله مثلما نال القرآن الكريم، ولم يزل يستنهض الباحثين في كل حين وجيل لبذل الجهد والاجتهاد للبحث في آفاقه الممتدة التي لا تعرف التحديد والتوقف عند نهاية ذلك بأنّه مرتبط بالعطاء اللامتناهي للذات الإلهية المقدسة، وهذا ما صرح به القرآن الكريم بخطابه العام المتجدد في كل آن بقوله تعالى: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴾ [سورة الكهف: ١٠٩].

ولم يقف عند هذا الحد من التحدي والإعجاز بل تخطى ذلك بكثير بإطلاق تعميمه القائل بعدم إمكانية تغطية كلمات الله -جل ذكره -ولو كانت أشجار الأرض كلها أقلاماً والبحر يمده ومن بعد سبعة أبحر لما أتت على كلمات الله وأحقها، بقوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾[سورة لقمان: ٢٧].

أهم المصادر والمراجع:

- الاتجاهات اللسانية و دورها في الدراسات الأسلوبية، د. مازن الوعر، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب/ الكويت، المجلد الثاني و العشرون، العددان الثالث و الرابع، ١٩٩٤.
- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع و تقديم نجله د. أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي/

بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٩٧م.
- أثر النص القرآني في التعددية الدينية–دراسة في متطليات الحوار الديني المعاصر –، د. نور الساعدي، الرافدين للطباعة و النشر/ بيروت، الطبعة الأولى: ٢٠١٧ م.
- استراتيجيات الخطاب –مقاربة لغوية تداولية –، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد/ لبنان، الطبعة الأولى: ٢٠٠٤.
- الأسلوبية والأسلوب، د. عبد السلام المسدي.
- إشكالية المصطلح في المؤلفات العربية–تحليل الخطاب نموذجاً–دراسة تحليلية نقدية، رشيد عزت، رسالة ماجستير، معهد اللغات و الأدب العربي.
- انفتاح النص الروائي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء، الطبعة الثانية: ٢٠٠١ م.
- بنية العقل العربي –دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية–، د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية/ بيروت، الطبعة التاسعة: ٢٠٠٩ م.
- تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص– دراسة –، د. عبد القادر شرشار، منشورات اتحاد الكُتَّاب العرب/ دمشق: ٢٠٠٦.
- تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء، الطبعة الثالثة: ١٩٩٢ م.
- تحليل الخطاب الشعري في ضوء اللسانيات النصية، أحمد مداس، رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر–بسكرة –الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية.
- تحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة، د. محمود عكاشة، دار النشر للجامعات/ القاهرة، الطبعة الأولى: ٢٠١٣ م.
- التحليل اللساني وعالمية القيم الدينية، د. المصطفى تاج الدين، مجلة الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء/ الرباط، العددان الثاني و الثلاثون و الثالث و

الثلاثون، رمضان ١٤٣١ هـ -غشت ٢٠١٠ م.
- التحليل اللغوي للنص -مدخل إلى المفاهيم الأساسية و المناهج -، تأليف كلاوس برينكر، ترجمه و علّق عليه و مهّد له: أ. د. سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار/ القاهرة: ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥ م.
- تحليـــل النص -د. محمود عكاشة، مكتبة الرشيد ناشرون، الطبعة الأولى: ١٤٣٥ هـ -٢٠١٤ م.
- تحليل النص -دراسة الروابط النصية في ضوء علم اللغة النصي، د. محمود عكاشة، مكتبة الرشيد نـاشرون، الطبعة الأولى: ١٤٣٥ هـ -٢٠١٤ م.
- التصور اللغوي عند علماء أصول الفقه، د. السيد أحمد عبد الغفار، دار المعرفة الجامعية/ الاسكندرية: ١٩٩٦ م.
- الثقافة العربية الحديثة والمرجعيات المستعارة، عبدالله إبراهيم، الـدار العربية للعلم نـاشرون/ بـيروت، الطبعة الأولى: ١٤٣١ هـ -٢٠١٠ م.
- جماليات المفـردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، أحمد ياسوف، دار المكتبي للطباعة و النشر و التوزيع/ دمشق، الطبعة الأولى: ١٤١٥ هت-١٩٩٤ م.
- جمالية الخطاب في النص القرآني، د. لطفي فكري الجودي، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع/ القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤٣٥ هـ -٢٠١٤ م.
- الحـد بـين النص والخـطـاب، ربيعة العربي، مجلة علامات، العدد الثالث و الثلاثون.
- حفريات المعرفة، ميشال فوكو، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي/ بيروت، الطبعة الثانية: ١٩٨٧ م.
- الخـطـاب، سـارة ميلز، ترجمة: عبد الـوهـاب عـلـوب، المـركـز القومي للترجمة/ القاهرة، الطبعـة الأولى: ٢٠١٦ م.
- الخطاب الأدبي في التراث العربي بين تقنية التبليغ وآلية التلقي، أطروحة دكتوراه، عيسى حوريه، الجمهورية الجزائرية، السنة السابعة، ٢٠١٥-

٢٠١٦.

- الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين و السياق، د. خلود العموش، جدارا للكتاب العالمي، الطبعة الأولى: ١٤٢٩ هـ-٢٠٠٨ م.
- الخطيئة والتكفير -من البنيوية إلى التشريحية نظرية و تطبيق -، عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء، الطبعة السادسة: ٢٠٠٦.
- دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، ترجمة د. كمال بشر، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع/ القاهرة، الطبعة الثانية عشرة: ١٩٩٧م.
- علم لغة النص -المفاهيم و الاتجاهات، د. سعيد حسن بحيري، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، الطبعة الأولى: ١٩٩٧ م.
- فان دايك و علم النص، عبدالقادر بوزيدة، مجلة اللغة و الأدب، جامعة الجزائر، العدد الحادي عشر، محرم ١٤١٨ هـ، ماي ١٩٩٧ م.
- الفكر الفلسفي واللغة العربية، عارف النكدي، مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد الثامن و الثلاثون، الجزء الثاني: نيسان ١٩٦٣ م.
- في لسانيات النص وتحليل الخطاب- نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم -، د. عبدالرحمن بودرع، بحث مقدم للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية/ جامعة الملك سعود: ٢٠١٣ م.
- في مفهوم النص ومعايير نصية القرآن الكريم -دراسة نظرية -، د. بشرى البستاني و د. وسن عبدالغني، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية/ جامعة الموصل، المجلد الحادي عشر، العدد الأول.
- القرآن الكريم ومناهج النقد الحديث، د. عبدالرحمن بودرع، المركز المغربي للدراسات والابحاث التربوية الاسلامية بالمدرسة العليا للاساتذة بتطوان -المغرب
- قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية -بنية الخطاب من الجملة إلى النص -، د. أحمد المتوكل، دار الأمان

للنشر و التوزيع/ الرباط: ٢٠٠١ م.
- قضايا لسانية -إشكالية التداخل، د. مازن الوعر، مجلة المعرفة، العدد ٣٧٩، نيسان ١٩٩٥ م، السنة الرابعة و الثلاثون.
- كيف نتعامل مع القرآن، محمد الغزالي، إشراف عام: دالة محمد إبراهيم، نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، الطبعة السابعة: ٢٠٠٥ م.
- لسانيات النص -مدخل إلى انسجام الخطاب -، محمد خطابي، المركز الثقافي العربي/ بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٩١ م.
- لغة الخطاب السياسي -دراسة لغوية تطبيقية في ضوء نظرية الاتصال، د. محمود عكاشة، دار النشر للجامعات/ مصر، الطبعة الأولى: ١٤٢٦ هـ -٢٠٠٥ م.
- اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز، ترجمة: عباس صادق الوهاب، مراجعة يوئيل عزيز، دار الشؤون الثقافية العامة/ وزارة الثقافة و الإعلام/ بغداد: ١٩٨٧ م.
- مختار الصحاح، للشيخ الإمام محمد بن أبي بن عبد القادر الرازي، إخراج دائرة المعاجم في مكتبة لبنان-بيروت: ١٩٨٩ م.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تأليف العالم العلّامة أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، تحقيق د. عبد العظيم الشناوي، دار المعارف/ القاهرة، الطبعة الثانية.
- المصطلحات الأساسية في لسانيات النص و تحليل الخطاب -دراسة معجمية -د. نعمان بوقرة، جدارا للكتاب العالمي، عمان/ الأردن، الطبعة الأولى: ١٤٢٩ هـ -٢٠٠٨ م.
- المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينك مانغونو، ترجمة: محمد يحياتن.
- المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث، د. محمد أحمد أبو الفرج، دار النهضة العربية للطباعة و النشر/ القاهرة: ١٩٦٦ م.
- معجم الأخطاء الشائعة، محمد العدناني، مكتبة لبنان/ بيروت،

١٩٧٣ م.

- معجم التعريفات، العلامة علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، تحقيق و دراسة د. محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر و التوزيع/ القاهرة: ١٣٩٢ هـ-٢٠٠٤ م.
- معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، عرض و تقديم و ترجمة د. سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني/ بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٨٥ م.
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والآداب، مجدي وهبة وكامل المهندس.
- المعجم الوسيط، د. إبراهيم أنيس و آخرون، مكتبة الشروق، الطبعة الرابعة: ٢٠٠٤ م.
- معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: الأستاذ عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة و النشر.
- المفردات في غريب القرآن، تأليف أبي القاسم الحسن بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ضبط هيثم طعيمي، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، الطبعة الأولى: ٢٠٠٨ م.
- مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، د. الزواوي بغّورة، المجلس الأعلى للثقافة: ٢٠٠٠ م.
- مفهوم النص -دراسة في علوم القرآن-، د. نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء، الطبعة الأولى: ٢٠١٤ م.
- مفهوم النص بين القديم والحديث، د. محمود الجاسم، مجلة جذور، المجلد الثاني عشر، الجزء الحادي و الثلاثين، جمادى الأولى: ١٤٣٢ هـ -إبريل ٢٠١١، النادي الأدبي الثقافي/ جدّة.
- مقالات في الأسلوبية، د. منذر عياشي، منشورات اتحاد الكتاب العربي: ١٩٩٠ م.
- مقدمة ابن خلدون، للعلامة عبد الرحمن بن خلدون، اعتنى به وراجعه محمد علي قطب، تحقيق: يحيى مراد، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع- القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨ م

- مناهج المتكلمين في فهم النص القرآني، د. ستار جبر الأعرجي، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، العتبة العباسية المقدسة، الطبعة الأولى: ١٤٣٨ هـ -٢٠١٧ م.
- منهج في التحليل النصي للقصيدة، د. محمد حماسة عبد اللطيف، مجلة فصول، المجلد الخامس عشر، العدد الثاني: ١٩٩٦ م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون و العلوم، العلامة محمد علي التهانوي، تقديم و إشراف و مراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون/ بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٩٦ م.
- نحو النص -اتجاه جديد في الدرس النحوي -، د. أحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق/ القاهرة، الطبعة الأولى: ٢٠١٠ م.
- نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، أحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق/ القاهرة، الطبعة الأولى: ٢٠٠١ م.
- نحو النص ومبادئه واتجاهاته الأساسية في ضوء النظرية اللسانية الحديثة، د. نعمان بوقرة، مجلة علامات، جمادى الأولى: ١٤٢٨- ٢٠٠٧، العدد السادس، النادي الأدبي الثقافي/ جدة.
- نسيج النص -بحث في ما يكون به الملفوظ نصّاً -، الأزهر الزّنّاد، المركز الثقافي العربي/ بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٩٣ م.
- النص القرآني و آفاق الكتابة، أدونيس، دار الكتاب العربي/ القاهرة، الطبعة الأولى: ١٩٩٣ م.
- النص و الخطاب و الإجراء، روبرت دي بوجران، ترجمة د. تمام حسان، عالم الكتب/ القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤١٨ هـ -١٩٩٨ م.
- نظرية النص، د. حسين خمري، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، الطبعة الأولى: ١٤٢٨ هـ -٢٠٠٧ م.